إبراهيم المكرمي

الإسماعيلية الفكرية

النشأة والصراع والبقاء



Jadawel جداول

الإسماعيلية الفكرية

النشأة والصراع والبقاء

إبراهيم المكرمي

الإسماعيلية الفكرية

النشأة والصراع والبقاء

جداول Jadawel

الكتاب: **الإسماعيلية الفكرية.. النشأة والصراع والبقاء**
المؤلف: **إبراهيم المكرمي**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
آب / أغسطس 2018
ISBN 978-614-418-378-6

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2018 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

المحتويات

المقدمة

على الـرغم من كل مـا قدّمت الإسماعيلية الفكـرية بشتى أنـواعهـا العـرفـانيـة للتاريخ والإنسان والعلم، وعلى الـرغـم مـن كل ما أنجـبت من معالم وعلماء ومصنّفات، فإنني ما زلت أرى أنها تنتظر كثيرًا من التقدير والاحترام والإجلال الأزلي، فهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك عزيزي القارئ ليس إلا محاولة متواضعة لقراءة التاريخ الفكري الكوني لهذه الجماعة، بأسلوب عصري يتناول أبرز قضاياها الشائكة في النشأة والانتشار والتطوّر، وأبرز المعوقات التي تعرّضت إليها هذه الجماعة من ترهيب وتشريد وتكفير وقتل ودمار لمكاتبها، إلى أن انقسمت وأصبحت متفرّقة في بقاع العالم، لتعيد تشكيل نفسها في قوالب اجتماعية وفكرية خاصة لتحظى بالاحترام في بلدانها، بل تجاوز الوضع إلى الدول والأقاليم، لما لمسه العالم من هذا الجماعة من مبادئ وقيم، بالإضافة إلى ابتعادها الكلي عن دهاليز السياسة الحالية ومنعطفاتها، ولعلّي كنت أرى أن سبب وصول الإسماعيلية إلى هذه المرحلة نابعٌ من موروثها التاريخي القائم على الصراع والبقاء الفكري.

للوهلة الأولى، وأنا في صراع شخصي لأول أعمالي في الكتابة، ولعلمي أنني قد أجد ردود أفعال سلبية وقد تكون إقصائية، إلا أن إصراري على تقديم هذا العمل كان نابعًا من حماسة فكرية قائمة على منظور مختلف وحضاري وإنساني في نبش التراث الفكري وتنقيته من

متعلّقات الحاضر، وهو الذي أخذت الطوابع الاجتماعية تغيّر في محتواه وأبعدته عن ركيزة التعدّدية والحوار وقبول الآخر، وهنا يجب القول إن هذا الكتاب عبارة عن استعراض تاريخي مبسط لهذا الفكر، بالإضافة إلى أنني تعاملت مع هذه الانقسامات الإسماعيلية كحدث هامشي لا يعدو كونه أمرًا طبيعيًا وفطريًا وبشريًا لدى الإنسان منذ فجر التاريخ، وكل ذلك لإثبات أن الأصول الجوهرية لهذه الطائفة هي التي صنعت كل هذا الاستقرار للجماعات الإسماعيلية في الحاضر.

أما بالنسبة إلى الصعوبات فقد كانت تدور حول إخراج هذا العمل الأولي، وهو شعور صعب تخيّله؛ ففي كل مرة كنت أتلقّى الاتصال من مطابع عربية إسلامية ترفض طباعة الكتاب كنت أصاب بحالة من خيبة الأمل، والأسباب كانت تدور حـول اعتبار الكتاب ذا صوت مذهبي عالٍ، والأخرى كانت لوضعي بعض الشخصيات في التاريخ الإسلامي تحت مجهر الانتقاد، وهنا يجب أن أقول إن الكتاب كان أقرب إلى الموضوعية والبعد عن الحدّة في فصوله، وبالنسبة إلى الشخصيات فهي كغيرها ممن كانت لها بطولات وكانت عليها مآخذ شنيعة أضرّت بالغير.

وهنا أريد أن أقدّم اعتذاري إليك عزيزي القارئ عن بعض الأخطاء غير المقصودة في الكتاب، علمًا أن جميع ما استدلّينا به موجود على رفوف المكتبات.

إبراهيم المكرمي

14/ 9/ 2017م

حملات التبشير الإسماعيلية

«أما حان الوقت للدولة الشريفة، دولة آل البيت، أن تقوم في مغارب الأرض».

الحلاج في رسالة إلى عبد الله المهدي، أول خلفاء الدولة الفاطمية.

لا تخلو النبوّات ولا الدعوات ولا حتى التيارات الفكرية من حملات تبشير كتلك التي قام بها حواريّو النبي السماوي عيسى الاثنا عشر في عام 33 م، فالكرة كانت تدور حول رسالة وتلقين واقتناع ومن ثم حماسة إلى أن تصل إلى مرحلة التبشير، فيما قد يأخذ التبشير مسلكًا آخر، إما حواريًا وإما عسكريًا إذا تطلب الأمر ذلك، لنشر الفكرة أو المذهب.

فمن ناحية تدارس بداية هذه الدعوات فإن المؤرخين يعودون عادة إلى هذه النقطة التي تُعتبر البداية والخطوة الأولى في كل مرة لملاحقة الأحداث ودراسة الظروف والأزمنة التي كانت تحتّم على هذه النبؤة البدء بهذا الشكل المكلف والمنهك، الذي قد يكتب لهذا الداعي الهلاك في تلك البقعة التي أرسل لتبشير أهلها بالدين أو الدعوة الجديدة، كما أن الداعي أو المُرسل يجب أن يحظى بإمكانات شخصية عالية تنعكس على البيئة التي من المؤكد أنه سيعاني الصعوبات فيها، وقد تصل مراحل

الصعوبات إلى قتله أو التمثيل به، خصوصًا إذا عرفنا أن الطبيعة البشرية عادةً لا تتقبّل التغيّر أو الأفكار الجديدة، فما بالك باعتقادات روحية تتعلّق بالعبودية والوجودية، إلا بصعوبة تامة، ثم إن التكيّف والتغير لا يكونان بتلك الطريقة السلسة التي نتوقعها، ولكن الأمر، كما قلنا، يحتاج إلى إمكانات خاصة ليتسنّى للداعي أن يدمر تلك الروزنامات الفكرية السابقة التي عمد الأئمة فيها إلى اختيار دعاتهم بعناية تامة، وفق معايير واختبارات، ليقيسوا مدى جودة وتحمل هذا الداعي لمواجهة أحلك الظروف، ولنا في قصة استجابة ابن الحوشب الذي استجاب للإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل على الرغم من انتمائه إلى المذهب الشيعي الاثني عشري، والذي استطاع تغيير مذهبه في وقت قصير وأرسله إلى اليمن ليكمل مشوار التبشير والقيادة[1]، ولم يوضح سرد القاضي النعمان في كتابه **افتتاح الدعوة**[2] طريقة استجابة ابن الحوشب إلا في جزء يسير وبسيط جدًا، ولكن ما هو واضح أنه كان ثمة دعاة قد وصلوا قبل ابن حوشب لتمهيد الطريق لقبول الداعي الجديد بقيادته، وهو ما سنسهب في سرده، وكل ما نريد تسليط الضوء عليه هو أن الإسماعيليين عرفوا، في وقت مبكر، أن طموح منهاجهم التعقيدي في المذهب لن يتم إلا بقدرات خاصة وسلّم هرمي دقيق العمل والتنظيم السياسي لتحقيق الهدف الأسمى لقيام إمبراطوريتهم، ولن يحدث هذا إلا بمجابهة التيارات الأخرى المذهبية التي لا تقلّ عنه شأنًا وطموحًا والتي انتشرت في القرن الثاني والثالث الهجري.

ومن هنا أطلق دعاة الأئمة الإسماعيليين الأفذاذ في مختلف جهات الأرض واستطاعوا أن يكونوا لبنة أساسية وقاعدة فكرية للأماكن التي

(1) **عيون الأخبار وفنون الآثار**، السبع الرابع، ص 334.

(2) **افتتاح الدعوة**، القاضي النعمان، تحقيق فرحات الدشراوي.

كانت تشهد حضور الجماعات الإسماعيلية فيها لتحقيق نبؤة القائم التي أخبرت بها النصوص المقدسة والأديان السماوية كما تدّعي الإسماعيلية.

ولم يكن ليتحقق هذا الطموح لولا لبنات المدارس الإسماعيلية التي كانت تغرس في الأراضي، والتي كانت توفّر البيئة المناسبة لجذب المستفيدين، ومن ثم المفيدين للعلوم بجميع أنواعها، ولخطورة هذه المهنة كان الدعاة بأمر الأئمة يستترون خلف شخصيات مستعارة، إما متصوفة جوالة وإما تجار، وكانت العهود هي سمة التوثيق بين المفيد والمستفيد، التي كانت تحرّم على المستفيد البوح بأي تفاصيل من الأسرار الشخصية أو العرفانية التي تقدم إليه، وهذا ما شكّل حركات سرية متواصلة لتجسيد البنية المناسبة لوصول القائد، سواء كان بابًا أو حجة أو داعيًا.

ومن هنا يرى مؤرخو العالم، وبالأخص المهتمين بتاريخ الشرق الأوسط والحركات الفكرية في العصور الإسلامية الماضية، أن الإسماعيلية بقالبها وتعاليمها العقلية والفلسفية، وبمختلف حضورها الاجتماعي والسياسي، استطاعت أن تندمج وتتكيّف في بلدان العالم، على الرغم من أن أكثرية هذا الانتشار تعرضت للاضطهاد والتشريد وقتل الجماعات الإسلامية، والسبب أنه كان ثمة من يراها تهديدًا وآخرون كانوا ينظرون إلى هذه الجماعات من منظور طائفي، والقسم الأخير كان يقع على خط الأحداث السياسية في العصر الحديث، إذ تعرضت للمأساة كغيرها من أبناء البلدان.

يقول أستاذ التاريخ والمحاضر الفخري في جامعة برتسون الأميركية البريطاني برنارد لويس[1] المختص في تاريخ الشرق الأوسط إن

(1) برنارد لويس، **الحشاشون فرقة ثورية في التاريخ الإسلامي**، مكتبة مدبولي، ص 98.

الإسماعيلية «تعني أشياء مختلفة في أمكنة وأزمنة مختلفة»، في دلالة على أن هذا التيار إما أنه قاد التغيّرات في تاريخ الإسلامي وإما أنه تكيّف مع التغيرات وحافظ على هويته المذهبية، ويرى بعض المهتمين بالتاريخ الإسماعيلي، كالمؤرخ الإيراني فرهاد دفتري[1]، أن العقيدة الباطنية هي أهم أسباب هذا البقاء للوجود الإسماعيلي في ظروف الأزمنة القاسية، وذلك لأن العلاقة الروحية التي استمدها التراث الإسماعيلي من أئمة آل البيت والدولة الفاطمية وكثير من الدعاة المنتشرين في بقاع الأرض كانت ثقافة وجودية جوهرية، وفي سياق المجد الثقافي لهذه الثقافة عبّر الفيلسوف والكاتب الإنكليزي بول ووكر عن الثقافة الإسماعيلية قائلًا: «إنها عبارة عن مرونة ومساحة فكرية مدهشة»[2]، وذلك بعد أن قرأ رسائل فلسفية عدة من التراث الإسماعيلي وأُدهش عندها بهذه الغزارة الفكرية لهذه الجماعة، ومن هنا نرى كيف لاحظ الغرب هذه الأهزوجة التناغمية بين تمدّد وتقلص الظروف الزمنية وبين قدرة الإسماعيلية في العالم على هذا التكيف الساحر ومواصلة ركب نشر العلوم والمعارف بطرق شتى، وهذا بطبيعة الحال لا يخفي الفترات السرية التي عاشتها الباطنية الإسماعيلية، والتي كانت تحمل في جعبتها أهم وأزخر المؤلفات العلمية في جميع مجالات تلك العصور.

ويعود مصطلح الإسماعيلية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، الابن الأكبر والإمام السابع من سلسلة أئمة آل بيت رسول الله ﷺ[3]، وهو الذي

(1) فرهاد دفتري، **الإسماعيلية في القرون الوسطى**، المقدمة.

(2) بول ووكر، **أبو يعقوب السجستاني وتطور أفلاطونية المحدثة الإسماعيلية**.

(3) **عيون الأخبار لداعي المطلق إدريس عماد الدين القرشي**، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، السبع الرابع، ص 352.

أخفاه أبوه في حياته عن قبضة العباسيين، وتحديدًا عن أبي جعفر المنصور 136 هـ، وقد علم بجديتهم في التخلص من سلالة آل بيت رسول الله ﷺ، إذ أخذ أئمة الإسماعيلية بعد هذا الحدث في التوجّه إلى الستر وإخفاء الهوية والعمل على نشر دعوتهم بتنظيم دقيق، فكان تسليط جهودهم على نشر دعوتهم في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، وقد لقيت الدعوة ظروفًا صعبة وقاهرة، خصوصًا بعد ترصد العباسيين وتفطنهم إلى هذا الحراك السري الذي اعتبروه أحد أكبر مصادر الخطر لإطاحة دولتهم العباسية، واستمر هذا الصراع حتى بعد ظهور الدولة الفاطمية وسقوطها عام 556هـ على يد صلاح الدين الأيوبي.

ولفترة الستر نمطان؛ الأول كان بوجود الإمام جعفر الصادق، وكان بإرسال الدعاة بعيدًا عن عيون بني العباس إلى أقطار الأرض ليدعوا إلى إمامته، كابن سفيان والحلواني اللذين أرسلهما إلى أفريقيا[1]، والنمط الثاني هو استتار الإمام جسديًا، كما حدث لحفيده الإمام محمد بن إسماعيل واقعيًا.

تبدأ فترة الستر الأولى بعد وفاة ثاني الخلفاء العباسيين أبي جعفر المنصور، وكان الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ما يزال مستترًا ومختفيًا عن عيون العباسيين، إذ لم يطلع على سر هذا الاستتار إلا خاصة الخاصة من أتباع آل البيت الذين استودعهم جعفر الصادق السرَّ، وحين قام هارون الرشيد في 170 هـ كان لا يزال على وصية أبي جعفر المنصور بالنيل من آل البيت، بعد أن تأكّد من موت موسى بن جعفر الصادق في سجنه، وفي

(1) **عيون الأخبار لداعي المطلق إدريس عماد الدين القرشي**، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، السبع الرابع، ص 325.

يوم من الأيام علم هارون الرشيد بمكان الإمام محمد بن إسماعيل 141هـ الذي تسمّى باسم ميمون القداح كنوع من التخفي، وعمل في مداواة العيون، وكان هارون قد أخبر زوجته زبيدة التي كانت تكنّ المحبة لآل البيت فأرسلت إلى محمد بن إسماعيل كي يحذر كيد هارون الرشيد، فخرج محمد من المدينة متجهًا إلى الكوفة فاستتر هناك[1]، ومن ثم ذهب إلى الري في فارس، ويذكر التاريخ أنه أرسل دعاته إلى المغرب في أول بذرة للخلافة الفاطمية، إذ أقام هؤلاء الدعاة؛ أمثال الحلواني وأبو سفيان، أسس الدعوة الإسماعيلية في المغرب، قبل أن يتجه إليهم أبو عبد الله الشيعي بقرن من الزمن. وعودة للأمام محمد بن إسماعيل فقد ظل يرتحل حتى ولد ابنه الخليفة من بعده في نهج الإمامة عبد الله الملقب برضي الدين إلى أن توفي الإمام محمد بن إسماعيل في مدينة تدمر ودُفن في شمالها، وقيل إن تابوته فُتح بعد ذلك إبان الدولة الفاطمية لينُقل إلى القاهرة المعزية.

وواصل عبد الله بن محمد وسار على نهج والده بالستر إلا أنه عُرف بعبد الله بن ميمون القادح لمواصلة التنقل والتخفي إلى أن وصل إلى مدينة نهاوند، حيث اشتد طلب بني العباس له، فغادر إلى الديلم مع اثنين وثلاثين من دعاته، وانتشرت دعوته، إذ كثر مؤيدوه في جميع الجهات، إلا أن شخصية الإمام عبد الله بن محمد كانت لا تزال مستورة إلا على الخاصة من شيعته، ولكن أن المأمون، الخليفة العباسي 198هـ، قتل علي ابن موسى الكاظم الذي اعتقد أنه خليفة الإمامة من آل بيت رسول الله سنة 201هـ بعد أن سقاه السم، وبعد سنة توفي أخو الإمام عبد الله شقيق

(1) **استتار الإمام**، أحمد بن إبراهيم النيسبوري، ص 95 ـ 96، نشر إيفانوف وترجمة الدكتور محمد كمال حسين.

الحسين بعد أن حاصره عسكر بني العباس وأردوه بسهم في عنقه، وكان الأئمة الإسماعيليون في دور الستر يتنقلون من بلد إلى بلد بزي التجار، وعلى الرغم من كل هذا التخفي فإن الأعداء استطاعوا قتل الحسين والتنكيل بأخيه أحمد الملقب بالليث الذي كان مسؤولًا عن الدعوة في خوارزم، وبعد تلك الأخبار السيئة قرّر الإمام عبد الله أن يرتحل من الأهواز متجهًا إلى سلمية التي جعلها عاصمة للدعوة الإسماعيلية ومهّد لانتشار دعاتها في تلك الفترة، وهناك رزق بابنه الأكبر أحمد بن عبد الله الملقب بالوفي المولود سنة 198 الذي اختفى عن الأنظار، وتوفي الإمام عبد الله بن محمد في سلمية سنة 212هـ بعد أن نصّ على ابنه أحمد الذي قام في سلمية وأرسل إلى دعاته الذين كتموا سره[1].

وظنّ المأمون الخليفة العباسي، بعد أن تخلّص من علي بن موسى، أن الإمامة انقطعت، حتى ألّف الإمام أحمد بن عبد الله ودعاته الأربعة **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا** وجمعوا فيها الحكمة والمعارف الإلهية والفلسفة والشريعة وأبانوا فيها الفضائل النبوية[2]، وأمر الإمام بأن تبث هذه الرسائل في المساجد ليقيم الحجة على المأمون العباسي الذي شرع في إدخال العلوم المزيفة إلى العالم الإسلامي، وقويت الدعوة في عهد الإمام أحمد بن عبد الله، إلا أن العهد ما زال في طور الستر إلى أن توفي سنة 269هـ، ونصّ على ابنه الحسين بن أحمد الملقب بالزكي (219 ـ 287هـ) الذي استكمل تأليف **رسائل إخوان الصفا** وألّف الرسالة الجامعة رقم اثنين وخمسين، إذ التقى في النجف الأشرف في العراق بأبي القاسم حسن بن فرح بن حوشب «منصور اليمن» الذي كان يدعو إلى إمامة

(1) **عيون الأخبار**، ص 363 ـ 366.

(2) المصدر نفسه، ص 367 ـ 368.

الحسن العسكري الإمام الحادي عشر لشيعة الاثني عشرية، وبعد هذا اللقاء تحول مسار ابن الحوشب إلى الإسماعيلية، إلى أن أرسله إلى اليمن هو وعلي بن الفضل الذي قاد حركة التمرد على الفاطميين في اليمن في وقت سابق وانشقّ عنهم بمعاونة المنشق الآخر المعروف بالداعي فيروز، وأرسل أبا عبد الله الشيعي إلى المغرب وتوفي الإمام الحسين بن أحمد إلى جانب قبر أجداده في سلمية[1].

وهنا بدأ الحراك الأول لدعوة الإسماعيلية في جنوب العراق على يد الداعي حسين الأهوازي عام 260هـ[2] الذي استطاع أن يستميل الداعي حمدان القرمط للدخول في الدعوة الإسماعيلية، وقد نشأت فيما بعد بأوامره الحركة القرمطية المنشقة، وفي عام 277هـ استطاع حمدان ابن قرمط أن يؤسس دارًا للهجرة محصنة قرب الكوفة لمؤيديه من القرامطة[3].

وظهر ابنه علي بن الحسين الذي كان عليلًا، وسمّي بالمعل، إذ لم يعش طويلًا، وكان يعاني من أمراض أودت به وهو في سن الشباب، وقبل وفاته رزق بابنه الخليفة الثاني لدولة الفاطمية القائم بأمر الله، كما أن عم علي بن الحسين، المدعو سعيد الخير الملقب بعبد الله المهدي، هو من استودع الخلافة الإمامية وارتحل إلى شمال غرب أفريقيا بعد مراسلات من الدعاة باقتراب ظهور الدعوة الفاطمية، ليظهر على عرشها وبرفقته ابن أخيه الخليفة الشرعي للدولة الفاطمية القائم بأمر الله.

---

(1) **افتتاح الدعوة**، ص 62.

(2) **معجم التاريخ الإسلامي**، فرهاد دفتري، ص 18.

(3) المصدر نفسه، ص 19.

وتشخيص الحالة الأولى من استتار الأئمة يخبرنا عنه الدكتور علي حسن مـوسى في كتابـه **الستر والتقية في تـاريخ الإسمـاعيليـة**[1]، ولقد مارس الأئمة الستر بوسائل عدة؛ وهي تنكرهم بصورة شخصيات أخرى كتجار أو أطباء متجولين، وانتحالهم أسماء غير أسمائهم الحقيقية ونسبًا غير نسبهم، ولفترة ما، قيامهم بدور حجج أو دعاة للإمام الذي بالطبع لا يمكن البوح عنه، ووجودهم في أماكن غير معلنة.

فترة الاستتار الأولى للدعاة

تعدّ فترة الاستتار لدى الدعاة من أعجب الحقب الإسماعيلية وأكثرها دهاء وذكاء في إدارة شؤون الدعوة في النطاق الإسلامي الكبير من قبل الأئمة والدعاة، والسبب يعود إلى محورية شخصية الإمام المستتر وكيف عاش بقوالب عدة وما تعرض له أتباعه، سواء معه أو بالبحث عنه، ففي كتاب **استتار الإمام** للداعي أحمد النيسبوري يقول ما نصه[2]: «اعلم علّمك الله الرشد أنه أول ما فقد الإمام وبقي الدعاة متحررين اجتمع وجوههم في مدينة عسكر مكرم وهم سبعة، أبو غفير وأبو سلمة والترمذي وأبو الحسن وجياد بن الخشعمي وأحمد بن الموصلي وأبو محمد الكوفي وهو موالي ابن مهزول الذي قتل موالي أهل البيت، ولما اجتمع كل هذا النفر المذكورون قالوا: قد فقدنا إمامنا ولا صلاة لنا ولا صوم إلا بإمام، ولا نعرف من نعطي زكاتنا، واجتمعوا مع الأولياء والمحبين، فجمعوا النفقات وقالوا لهؤلاء الدعاة المذكورين في صدر الكتاب: امضوا وافترقوا على صدر خرسان والعراق وجزيرة حران واليمن واطلبوه،

(1) الدكتور علي حسن موسى، **الستر والتقية في تاريخ الإسماعيلية**، دار نينوى، ص 18.

(2) النيسبوري، **استتار الإمام**، ص 17.

فخرجوا وتفرقوا لكل واحد منه صفته وحلته، فخرجوا على هيئة الطوافين على دوابهم أخرجوا فيها الفلفل والريحان والمغازل والمرايا واللبان وما يصلح من أصناف السقط وجعلوا لهم موعدًا يجتمعون فيه في كل إقليم على كل قسم، لكل واحد منهم قسم يمضي إليه، وإذا فرغوا من الأقاليم أتوا إلى الميعاد فيسأل بعضهم بعضًا هل أصبتم شيئًا؟ فإذا لم يجدوا في ذلك الموضع شيئًا انسلوا للأقليم الأخرى، فيتواعدون في موعد آخر ويجتمعون، وكانوا إذا اجتمع عليهم النساء والصبيان سألوهم: هل وقع عليكم رجل من صفته كذا وكذا؟ كان هذا حاله في كل موضع دخلوه، فداروا حلب وأقليم الجزيرة وغيرها، فلم يجدوا شيئًا فاتجهوا لإقليم حمص فنزلوا بمعرة النعمان وجعلوا الميعاد في الجوامع، وكان الإمام عليه السلام قد وقع في معرة النعمان في جمل سماق في دير يقال دير كفرقوم.

فخرج ابن الغفير ومع جياده إلى معرة النعمان في جبل سماق وسأل النساء والصبيان: هل وقع عليكم رجل صفاته كذا وكذا؟ فقالوا له: هب لنا مما لديك من لبان ومغزل وسندلّك. وقالوا له: الساعة أجزنا في دير العصفورين، وغلامه واقف على رأسه، فقال له أبو الغفير: الله الله دلوني على هذه الطريق فركب حماره ومضى حتى وصل إلى الدير فخرج بصفة فإذا هو الرجل والحلية ولم تكن له معرفة من قبل، فلما وقف إمامه عرفه بالصفة فسجد وخر لله ساجدًا وشاكرًا إذا وقع عليه بين يديه، فقال له: من تكون؟ قال: أنا فلان بن فلان، ونحن سبعة من الدعاة، لنا اليوم سنة لما فقدناك ودعاتك في كل مكان افتقدوك وبقوا حائرين، فقال له: يا هذا إن جزت هنا لأستر نفسي في هذا المكان فكشفتموه، ولكنك بعد أن جئت واجتمعت معي فعد وجمع أصحابك إلي بأجمعهم فأجتمع معهم لأعقد عليكم ما ترجعون به بإذن الله تعالى.

فرجع بن الغفير فرحًا ومسرورًا فاجتمع مع أصحابه وفرحوا بذلك فرحًا شديدًا، فمضوا بجماعتهم إلى دير العصفورين فاجتمعوا مع صلوات الله عليه فقال لهم: ارجعوا قولوا لدعاتي إنا أصبناه في موقع كذا فمضوا هؤلاء السبعة وأبلغوا الدعاة في كل الأفق».

وهنا نعرف مما رواه الداعي أحمد بن إبراهيم النيسابوري أنه في بداية عهد الستر تعرض الدعاة لمعضلة استتار الداعي عن الناس أجمعين، مع كل تلك المحنة التي تعرض لها الدعاة في الوفاء للإمام باستحقاقات الفروض والزكاة، وهنا تلخيص مجزٍ لما يمثله دور الإمام شخصيًا في الدعوة بالأخص في ما يعرف بعهد الاستتار الأول بين الدعاة.

زخرت هذه الفترة بالانتشار الكبير ونشر المدارس على امتداد العالم العربي، كما زخرت بأعظم المؤلفات الإسماعيلية على الإطلاق، التي أثارت جدلًا معرفيًا وأظهرت الشكل الآخر للعلوم الإسلامية للعالم بشكل أكثر تطورًا، وهنا نتحدث عن إنتاج مبهر وهو **إخـوان الصفا**، ودعاة مثل الفارابي والحلاج والداعي عبدان وغيرهم من الدعاة ذوي الشأن السياسي أمثال ابن الحوشب وأبي عبد الله الشيعي وأبي سعيد الجنابي وغيرهم، وفي المقابل زخرت هذه الفترة بالأحداث.

فبعد أن أقر الإمام جعفر الصادق المرحلة الجديدة من الستر باختفاء ابنه إسماعيل بعد أن عرف مكيدة أبي جعفر المنصور في خليفته قرّر إرسال دعاته إلى أقطار الأرض، ولكن الحركة الفعلية كانت كما ذكر جعفر بن منصور اليمن في كتابه **الفترات والقرانات**[1] أن الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق أرسل أربعة دعاة إلى اليمن، هم عبد الله بن

(1) **الفترات والقرانات**، جعفر بن منصور اليمن، تحقيق عمرو الهمداني، الدار المحمدية الهمدانية للدراسات والأبحاث، المقدمة.

مبارك وعبد الله بن ميمون وعبد الله بن جعفر وابن مسلم، ومن هنا نستنتج أن الأئمة الفاطميين اختاروا اليمن لكثرة أنصار الإمام علي بن أبي طالب فيها منذ فجر الإسلام، وكما أن النبؤة الفاطمية كانت تركز على اليمن مهبطًا لدولة الإسماعيلية المقبلة قبل أن تتغير الوجهة إلى شمال أفريقيا عن طريق الداعي ابن عبد الله الشيعي، وفي منتصف القرن الثاني، وهنا تنقطع المواد التأريخية بهذا الشأن، يخبرنا القاضي النعمان في كتابه **افتتاح الدعوة** عن انطلاق الدعاة الإسماعيليين إلى أقطار الأرض عام 290 هـ بتوجيه من الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، إذ استقر الحسن بن حوشب الملقب بمنصور في اليمن فيما بعد بين يدي الإمام، وحدّد له تفاصيل ما سيفعل وتحديدًا في عدن شمال غربي صنعاء، وذلك بعد اضطرابات الدولة اليعفرية التي كانت تحكم أجزاء من اليمن وتدين بالولاء للدولة العباسية في ذلك الوقت، والداعي علي بن الفضل في جنوب اليمن، وتحديدًا في منطقة عدن أبين جنوب اليمن، وقد استطاع أن يدخل إلى صنعاء التي أوصاه بها الإمام[1] وتوسيع رقعة دولته الوليدة، إذ كسب كثيرًا من المريدين والأتباع إلى أن حانت ساعة سقوط حكمه في تلك البلاد وعودة مقاليد الحكم والسيادة إلى بني يعفر، وتحديدًا إلى الأمير أسعد بن يعفر الذي سمّ لابن الفضل وقضى عليه عام 303هـ[2]، وقد دامت دولتهم 33 سنة توسعت فيها هذه الدولة في اليمن كله، ولكنها سرعان ما بدأت في التقلص بسبب تصرفات علي بن الفضل الذي يقال إنه فقد الاتصال مع الإمام ورفض العودة إلى طاعة الحسن بن حوشب وقام بإصدار أوامر الإباحة للمحرمات إلى أن

(1) **افتتاح الدعوة**، ص 30.

(2) المصدر نفسه، ص 33.

سمّم له ومات، وبهذا انتهى دور دولته، بينما توفي الحسن بن حوشب قبله بعام قبل أن يوكل شؤون نصف الدولة الأخرى الذي يرضخ تحت قيادته شمال اليمن إلى ابنه الحسن وعبد الله بن عباس الشاوري، ولم يدم الأمر طويلًا حتى ظهرت الدولة الفاطمية التي أصبح الحسن بن منصور اليمني أحد أهم دعاتها في شمال أفريقيا، بينما فضّل عبد الله بن عباس الانفصال عنهم، على الرغم من معارضة أخيه له في هذا القرار.

وعن طريق البحر أرسل الإمام مجموعة من دعاته ليستقروا في شمال الهند وخراسان وإقليم بدخشتان، وهم أبو عبد الله الخادم والحسين بن علي المروزي ومحمد بن أحمد النسفي، ولكن من أهم وأوائل من ذهبوا إلى السند في منتصف القرن الثاني الهيثم ابن شقيق الحسن بن حوشب بأمر منه، وإيعاز من الإمام، وقد حقق الإسماعيليون درجة من البروز، خصوصًا في بلاط الحاكم الساماني نصر الثاني في القرن الثالث الهجري[1] الذي كان يحكم السند وأجزاء من فارس، وبعد سنوات وصل أبو عبد الله الشيعي إلى شمال أفريقيا عام 279 هـ، قادمًا من اليمن، بعد أن عاد بقافلة حجاج من قبائل كتامة، ووصل الداعية أبو سعيد الجنابي إلى القطيف والبحرين شرق الجزيرة العربية، وهكذا طبّقت الدعوة الإسماعيلية ما قام به حواريو النبي عيسى عليه السلام من حملات التبشير من الهند إلى اليمن إلى المغرب، في شبكة سرية مترابطة من دون أن تشعر الخلافة العباسية بذلك حتى قامت الخلافة الفاطمية في غرب العالم الإسلامي على يد عبد الله المهدي، إذ لم تتجاوز هذه الرحلات التبشيرية الاثنتي عشرة سنة، ويتضح أن الأئمة كانوا قد أرسلوا قبل هؤلاء الدعاة دعاةً لتذليل الصعاب

(1) **معجم التاريخ الإسماعيلي**، ص 19.

ومراسلتهم بظروف تلك البلاد ومدى تقبّل الناس لمنظومة الدعوة، وعلى الرغم من أن ابن الحوشب حقق نجاحات كبيرة في اليمن وتوسعت رقعة الدعوة على يده، وظن منتظرو الخلافة الفاطمية أن شمس الدولة ستظهر من جنوب الجزيرة العربية إلا أن أبا عبد الله الشيعي، بمساندة قبائل كتامة الأمازيغية، كان قد جهّز عرش الدولة للإمام عبد الله المهدي، فيما ما زال كثير من الدعاة منتشرين في فارس وخراسان وما وراء النهرين وقزوين والأناضول على أهبة الاستعداد لتطبيق مخطط الدولة الإسلامية الكبرى، وهذا ما لم يحدث بسبب التقلبات السياسية والاضطرابات وقبول الناس لدولة بني العباس وغيرها من الدول، وبعض منها كان لأسباب مذهبية، إذ إن الإسماعيلية لم تكن قد ظهرت بشكل يجعل الناس يدخلون فيها، وهذا إذا ما استثنينا مطارادت خلفاء بني العباس للدعاة ودفع المال للنيل من كل معتنق لهذا المذهب.

أما أبو سعيد الجنابي فحقق انتشارًا كبيرًا في القطيف والبحرين وهجر بعد أن التقى الإمام الحسين بن أحمد بالداعي حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، الذي معناه أحمر الرأس واللحية، والذي اقتنع بدعوة الإمام وذهب إلى سلمية في سوريا للدراسة والتعلم ليذهب في أقطار الأرض ويضم كثيرًا ممن اقتنعوا برسالته، وعندما توفي الإمام علي بن الحسين واستودع الخلافة شقيقه سعيد الملقب بالخير انشقّ الإسماعيليون لانقطاع أخبار الأئمة ومعارضتهم الإمام عبد الله المهدي الذي ارتحل عن سلمية بسبب الانشقاق، إذ أعلن الإسماعيليون المنشقون الذين سموا فيما بعد بالقرامطة تركهم الاتباع. وهذا ما أخرجهم من دائرة الإسماعيلية وجعلهم يشقون طريقًا آخر مغايرًا لما عرف المذهب به في وقت سابق[1].

(1) **القرامطة بين الثبات والالتزام**، عارف تامر، ص 31.

وهذا ما جعلهم يسلكون طرق النهب والسفك واستباحة الأموال إلى أن تحوّلت إلى إحدى وثبات الهدم المبكر في تاريخ العالم الإسلامي التي جعلت شرق الجزيرة العربية مقرًا لها، وعلى خلاف ذلك ظل الإسماعيليون الموالون لأبي عبدالله المهدي يرصدون قيام الدولة الفاطمية، طائعين أوامر الأئمة، وتذكر مصادر التاريخ أن الداعي عبدان والداعي حمدان بن الأشعث تعرّضا للقتل غدرًا عن طريق أحد قادة القرامطة الذي يُدعى زكروية بن مهروية الذي قاد جيش القرامطة في حروب كثيرة، منها سقوط العراق تحت حكم القرامطة والوصول إلى القاهرة المعزية بغية إسقاط الدولة الفاطمية في عهد المعز لدين الله، إلا أن ذكاء الخليفة استطاع أن يوقف هذه الحركة من الوصول إلى مصر عن طريق دعم قبائل الربع الخالي بالمال لإيقافهم[1].

على الرغم من كل ما قدمه القرامطة من انحراف كلي عن مبدأ الأئمة والإسلام عمومًا، فإن حياتهم أخذت تزدهر بشكل متطور في هجر والقطيف والبحرين بسبب أنظمة الحياة الاشتراكية التي نقلها إلينا الداعي الإسماعيلي النزاري ناصر خسرو الذي كتب عن رحلته الموجزة ما ذكر فيه: «إنهم قوم يسمّون أنفسهم أبا السعيديون» نسبة لأبي سعيد الذي تشير التوقعات إلى أنه قد يكون الداعي الأول الذي أرسله الأئمة في وقت سابق وهو أبو سعيد الجنابي. وأكمل ناصر خسرو قائلًا[2]: «خلف أبو سعيد ستة أبناء وكوّن لهم مجلسًا لإدارة دولتهم السعيدية، حيث كان القرار لا يخرج إلا بموافقة الستة، كما أن لهم ستة وزراء» (كما يعرف في عصرنا الحالي بمجلس الشورى الذي لا يخرج منه القرار إلا بدراسة الجميع لجوانبه).

(1) **القرامطة بين الثبات والالتزام**، عارف تامر، ص 32.

(2) **سفر نامه**، ناصر خسرو، ص131، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ويكمل: «كان السعيديون إذا افتقر إنسان يتعهدون حتى بتسيير أعماله، وإذا كان لأحدهم دَين كانوا يسددونه، وكل غريب له صناعة يُعطى ما يكفيه من مال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات ويرد إلى الحكام ما أعطوه، وإذا خرب بيت أو طاحونة أحد الملاك ولم يكن معه مال ليصلحه أمروا جماعة من عبيدهم بإصلاحه ولا يطلبون من الملك شيئًا، وهولاء السلاطين الستة يسمون سادات».

وعلى الرغم من أن القرامطة قد كانوا ينوون القضاء على الخلافة الفاطمية، كما أنهم سرقوا الحجر الأسود، فإنهم عكسوا بعض مبادئ المجتمع، ولكن هذا لا يشفع لما قاموا به من قتل وتنكيل في حق حجاج الرمان وفي أحد أهم مقدسات الله سبحانه وتعالى.

الحلاج والدعوة السرية للدولة الفاطمية

يعدُّ الحلاج، الحسين بن منصور، من حجج الدعوة الفاطمية، والحجة مرتبة أعلى من الداعي، وكان يعتبر أحد المنظمين السريين للحركة الإسماعيلية في العراق، إذ كان يطلق عليه في دور الستر أنه أبو عبد الله العراقي أو أبو عبد الله الزاهد، إذ لم تُعرف هويته إلا في أواخر عمره، فقد عرف في الكوفة بطريقته الصوفية وأشعاره، ولم تكن الدولة العباسية في عهد الخليفة المقتدر 295هـ ترى فيه مصدر خطر إلى أن اكتشفت الدولة رسالة كان قد بعثها الحلاج إلى الإمام الحسين يقول فيها «أما حان الوقت للدولة الشريفة دولة آل البيت أن تقوم في مغارب الأرض»[1]. ومن هنا أيقنت الخلافة العباسية ضرر الحلاج حتى حكم عليه بالإعدام صلبًا، وعلى الرغم من تجاهل المؤرخين إسماعيلية الحلاج فإنه أصبح أحد أهم الأعلام الصوفيين في الشعر والفلسفة، إذ يُقال إن كثيرًا من مؤلفاته حرقت

(1) لويس ماسينيون، **ديوان الحلاج**، ص 42، نسخة إلكترونية.

ولم يتبق سوى ديوانه وكتاب **الطواسين**، ولم يغفل الدعاة المتأخرون ذكر الحلاج، فقد ورد ذكره في كتاب **جنة الجنان** للداعي الإسماعيلي الطيبي السليماني علي بن هبه، وهو أحد الكتب الخاصة الذي أتى على ذكر الحلاج كأحد دعاة الإسماعيلية المستترين في القرن الثالث الهجري.

وفي الحلاج يقول الداعي الفيض علي بن سليمان شعرًا في أحد مؤلفاته **بستان النفوس**:

وكذلك الحسين أبو المعالي له الحلاج اسمًا يا حماه
له التقدير مولانا سلامًا وبحبه يطيب النجاه

المتنبي الشاعر الإسماعيلي

على الرغم من حساسية الانتماءات الفكرية أو المذهبية في العصر العباسي، ظل أحمد بن الحسين الجعفي الكندي، الملقب بأبي الطيب المتنبي وأحد أهم شعراء العرب والإسلام على الإطلاق، يخفي شخصيته الإسماعيلية عن عامة الناس، خوفًا من البطش به ولحساسية الإسماعيليين الذين كانوا في قائمة المطلوبين ويتعرضون للمطاردة والتنكيل من خلفاء بني العباس الذين وضعوا المال والهبات لمن يدلون بالمعلومات عن مواقع أئمة الإسماعيلية ودعاتها.

وقيل إن أبا الطيب المتنبي كان يلتقي بالدعاة الإسماعيليين في البادية وظل لمدة عامين في سلمية التي كانت في ذلك الوقت مقرًا للدعوة الإسماعيلية، حيث أظهر براعة في التخفي لا تقل عن براعته في الشعر، ليدرس على يد أحد دعاة الإسماعيليين الذي يقال له أبو الفضل[1]، وقد قال المتنبي في ديوانه قصيدة جاء فيها:

(1) **مع المتنبي**، طه حسين، ص 44 ـ 45.

يـا أيهـا الملـك المصفـى جوهرًا من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نــوًا تـظاهــر فـيـك لاهـوتـيـتـه فكتـاد تعلم مـن علم من لـم يعلما
ويهـم فيـك إذا نطقـت فصاحـة مـن كل عضـو منـك أن يتكلمـا
أنــا مـبصــر وأظـن أنــي نـائـم مـن كان يحلـم بالإلـه فأحلمـا
كبــر الـعيــان علــيّ حـتـى إنــه صـار اليقيـن مـن العيـان توهمـا

وقيل إن المتنبي كان يجلب الأخبار إلى مدينة سلمية عن حال الدعوة في العراق، كما أنه امتدح أحد أعلام مدينة اللاذقية المدعو بدر آل عمار الذي كان إسماعيلي النزعة، إذ يقول المتنبي بديوانية في مركز الدعوة الإسماعيلية في سلمية بالشام:

فـأقبلـهـا المـروج مســومـات ضــوامـــر لا هــزال ولا شـيـــار
تــثيــر عـلى سـليمـة مسيطـرًا تـنـاكــر تـحــت دون الـشـعـار

ومع ذلك لا نجزم بأن المتنبي ظلّ على حاله لفقره ورزقه الوحيد الذي كان يجنيه من مدح الحكام.

الفارابي

يعتبر الداعي أبو نصر الفارابي المعلم الثاني أكثر العلماء الإسماعيليين ظهورًا في تاريخ الاستتار الأول، فعلى الرغم من محاولة تشويهه من قبل بعض المؤرخين وفقهاء المذاهب الأخرى في العصور المتأخرة فإن سيرته كإسماعيلي كانت معروفة في تلك الحقبة، إلا أنه لم يتغير عن غيره من الدعاة الذي ظلوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة، بعضهم كان يراها لأسباب تنظيمية للمدارس الإسماعيلية المستترة في ذلك الوقت والآخرون يرونها محاولة للتعلم، إذ يذكر المؤرخون أن الفارابي كان أحد تلاميذ داعٍ إسماعيلي في العراق كان يعرف بابن سراج، وعندما فرغ

منه اتجه إلى سيف الدولة الحمداني الذي أجلّه وقدّره، وبالإضافة إلى ما قدّمه الفارابي للفلسفة والمنطق والعلوم اللسانية والمعارف الأخرى فإنه اشتهر بشكل كبير بقصته مع العود في بلاط الحمدانيين، عندما طلب منه الحاكم العزف على العود فضحكوا ثم قلب أوتار العود وعزف فبكوا ثم قلب أوتار العود وعزف فبكوا فترك لهم المجلس.

وعلى الرغم من أن الفارابي كان من المفضلين في بلاط السلطان فإنه ظل وفيًا لحياته الزاهدة والمتقشفة، إذ لم يتزوج ولم يقتن المال، ورفض الهبات من سيف الدولة، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من 70 كتابًا[1].

رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا

على الرغم من إخفاء أسماء مؤلفيها وبقاء لغزهم فإن هذه الرسائل، بلغتها الرصينة وغزارتها المعرفية، كان لها الفضل في إعطاء رؤية مغايرة عن النمط الروتيني التي تعودت الكتب الإسلامية على وجوده، فهذه الرسائل الجامعة للحِكم والعلوم والمعارف الإلهية والفلسفية والشرعية أثارت العقل الإسلامي باعتراف كثير من المؤرخين والفلاسفة، كابن خلدون، كما أن الرسائل اشتملت على اثنتين وخمسين رسالة في غرائب العلوم وفنون الحكم وطرائف الآدب وحقائق المعاني، مقسّمة أربعة أقسام: فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية.

وهنا يقول الداعي المطلق المؤرخ في كتابه **عيون الأخبار وفنون**

(1) أبو نصر الفارابي، **مقدمة كتاب الحروف**، دار الشرق.

الآثار[1]: «إنما ألّف الإمام أحمد بن عبد الله تلك الرسائل وأبان فيها واضحات الدلائل ليقيم الحجة على المأمون وأتباعه ومن قفّى على آثارهم وشاكلهم في إيرادهم وإصدارهم، حين انحرفوا عن علم أهل النبوة وآثروا علم الفلسفة ولم يأخذو هذا وهذا بقوة، ليعلم أنه لا يتم له المراد وأن الله قد حفظ شريعة نبيه ﷺ».

(1) **عيون الأخبار وفنون الآثار**، السبع الرابع، عماد الدين القرشي، ص 390، دار الأندلس.

هولوكوست المكتبات الإسماعيلية
في الشرق والغرب

«كيف تحكم على إنسان؟ فأجاب كم كتابًا يقرأ وماذا يقرأ؟»

أرسطو

عرف التاريخ حرق المكتبات منذ بداية العصور الإنسانية البدائية، وبالأخص عصور ما بعد التدوين، فحرق هذه المجمعات الكتبية التي يتنافس البشر على تأليفها لم يكن لأنها تشكل معلمًا مهمًا في المدينة أو الحضارة التي تنتمي إليها هذه المكتبة، ولكن لأنها تساهم بشكل كبير في تخلف المعرفة لدى الإنسان وتعيده سنوات كثيرة قد تتجاوز المئات إلى الخلف، فبدلًا من أن تجد الإنسان يبني المجد تلو المجد في توسيع رقعة هذه المصفوفات الفكرية تجده يدمرها، ولا نستثني المبدأ المكيافيللي الذي يقول بأن الغاية تبرر الوسيلة، وقبل أن نتحدث عن الجانب السياسي من غاية حرق هذه المكتبات، يجب أن نقول إن المكتبات في العالم القديم هي أهم المراتع العلمية التي تختصّ بتعليم الفقراء وتطويرهم والاستنفاع من قدراتهم ببناء أنفسهم، وبناء وطنهم، باعتبار أن صناعة الكتب في العالم القديم واقتناءها كانا صعبين على الفقراء، فلطالما كان الاقتناء للأغنياء، كما أن بإمكان الجهة المشرفة على المكتبات أن

تحفظ مئات الكتب منها بعيدًا عن العبث، سواء في المحتوى أو في بقائها أو اختفائها، وعند عودتنا إلى الغاية السياسية، فالمطمع الأساسي في حرق المكتبات هو محاولة حقيقية لتدمير حضارة العدو وبناء حضارة جديدة على أنقاضها، وهنا يضع لنا التاريخ قائمة من أهم وأكثر حوادث حرق المكتبات ضررًا عميقًا على التاريخ الإنساني، بداية بتدمير مكتبة الإسكندر الأكبر التي دمّرها الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر عندما أحرق 100 سفينة إلى جانب المكتبة فدُمرت المكتبة، وكانت فيها مؤلفات العالم القديم، والحادثة التي قبلها، والتي تركت طابعًا مؤلمًا في تاريخ المعرفة، كانت إحراق مكتبة القسطنطينية في عاصمة الدولة البيزنطية بعد ألف سنة، وقد كانت زاخرة بمئات المخطوطات اليونانية والإغريقية، وكان ذلك مع بداية الحكم المسيحي الديني الذي كان يوعز إلى الحكماء بضرورة تدمير هذه المكتبات لأنها تخالف المنهج الديني المعمول به، وتساعد الناس على التفكر في غير الكتب الدينية، وعلى الرغم من غزارة الوقائع والأحداث فإن هاتين الحادثتين تعتبران من أهم حوادث حرق المكتبات في تاريخ العالم.

وكما قلنا، فإن حرق المكتبات وتدميرها هو من أشنع وأفظع الجرائم على مرّ تاريخ البشرية؛ باعتباره إحدى الطرق السياسية لتدمير حضارة العدو والبناء على أنقاضها حضارة جديدة، وعندما نتحدّث عن المكتبات الإسلامية، فلا نستثني تدمير المغول مكتبة بغداد وما له من أثر في مسيرة المعارف الإسلامية، إذ إن بعض المؤرخين أطلق على ما بعد الحادثة عصر الانحطاط الإسلامي، ولكن هنا لا يسعنا إلا أن نضع علامة تعجّب حول هذا التاريخ الذي تألم من حرق مكتبة بغداد، لأن العدو كان خارجيًا وكافرًا، بحسب الاعتقاد الإسلامي، ولم تقابل المكتبات الفاطمية بنفس

هذا التألم، وهنا نستطيع أن نضع التسويغ الطائفي الذي كانت تقوده العاطفة في كتابة التاريخ، فما زلت أرى أن إحراق المكتبات الفاطمية هو الأشنع في التاريخ الإسلامي؛ نظرًا لأن المحرق وصاحب الأمر هو قائد مسلم ودولة مسلمة، وليس كما هو الحال في إحراق مكتبة بغداد، إذ كان المغول في تصنيف العرب والمسلمين كفارًا، وفي هذا الفصل سنتكلم عن إحراق المكتبات الفاطمية وغيرها من المكتبات الإسماعيلية على مر التاريخ، والغاية من هذا الفصل تسليط الضوء على معاناة المعرفة لدى تيار مذهبي إسلامي كان وما زال يواصل إفرازاته العلمية والأدبية ذات الأثر العميق في التراث الإسلامي عبر التاريخ.

إن زخم المعرفة الذي انبثقت منه المكتبات الإسماعيلية يحكي عن تلك الحقبة المجيدة، إلا أن سياسة الوعّاظ المذهبية كانت تجيز هذا الفعل وتبرره وتباركه، ولأن الفاطميين في مصر والنزاريين في فارس والمستعلية في اليمن والهند في وقت متأخر كانوا ممن برعوا في المعارف والعلماء كغيرهم من المسلمين، وظهر منهم كثير، فإن هاجس إحراق مكتباتهم وتدمير موروثهم يضع هذه الفرق والجماعات ضمن أكثر الطوائف اضطهادًا في التاريخ الإسلامي؛ فالحراك المعرفي الإسماعيلي منذ ظهوره الأول في القرن الثاني الهجري واستتاره كان يبدو كشعلة تتوقد للظهور، إلى جانب حركة من المنافسات الفكرية في ذلك العصر، ونتكلم هنا عن أهل الحديث من الحنابلة والمعتزلة والأشعرية من الجانب السني، والحراك الجعفري والزيدي، وأخيرًا الإسماعيلي، من الجانب الشيعي؛ فهذا القرن شهد زخمًا كبيرًا في حركة التأليف والإنتاج، والترجمة كذلك، وكان السبب يعود لاعتبارات كثيرة جدًا؛ ففي الإسماعيلية، وهي موضوع كتابنا، كان الأئمة، وهم سادة القرار والمحرك

الثابت في تدفق المعارف الإسماعيلية، يعتنون بطلبة العلم الذين كانوا يتوافدون من بقاع الأرض بطرق تلقينية سرية في عهد الاستتار خوفًا من الاضطهاد السياسي، وبالأخص في العهد العباسي، وهذا الاعتناء تزايد إلى أن أصبح محط أنظار المؤرخين في عهد الظهور، أو كما يعرف عندما كانت للمذهب الإسماعيلي دولة تستطيع من خلالها تحقيق طموحاتها التوسعية المعرفية في القاهرة. وهنا يجب أن نذكر الغاية من بناء المكتبات الفاطمية، وبالأخص دار الحكمة التي يقول فيها عبد الله بن المرتضى الإسماعيلي في كتابه **الفلك الدوار** ما نصه «إن دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة 395 هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة كانت من أجسم المؤسسات العلمية وأرقاها ووقف بها أماكن جمة ينفق عليها من ريعها ففرشوها وزخرفوها حتى أصبحت جنة في تقانتها والعرض، والغرض من دار الحكمة لخدمة الناس في المطالعة والدراسة والتأليف، وهي طريقة القدماء لتعليم الناس إذ يتعذر إلا على الأغنياء اقتناء الكتب وفتح أبوابها للناس»[1]، وكان الحاكم بأمر الله يستحضر العلماء إلى الدار المذكورة إلى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة.

أجل كان المراد الأسمى من إنشاء دار الحكمة لتكون ذات مراتب ثلاث:

الأولى:

جُعلت لاستيعاب الكتب، كما ذكر للمتمدن الإسلامي للمطالعات والمحاضرات بين العلماء والفقهاء وأرباب المناصب الكبرى في المملكة من سياسة وقضاء ولهم أجر، والأخرى أنه يقال عنها دار

(1) عبد الله بن المرتضي الإسماعيلي، **الفلك الدوار في سماء الأئمة الأطهار** ص 63 ــ 65.

المباريات أو ميدان السباق العلمي، لما كان الخريجون يدهشون العالم من سعة علمهم وسعة اطلاعهم، كالحسن بن عبد الله اليازوري وأبو سعيد التستري والجرجاني وعلي بن فلاح وزير الوزراء والسيد حمزة بن علي الفارسي.

الثانية:

جعلت لتثقيف القضاة وتدريبهم على شؤون القضاء، وكان منهم الذين يتولون مناصب القضاء ولا يخول لطالب التمرّن في الدار حتى يتخرّج من الأزهر، وكانت وضعيتها تمثل صفة محكمة، فيتقاضى أولئك ويترافعون أمام بعضهم ليتدربوا على القضاء، باختصار هي مقرّ التدريب القضائي؛ لأن منصب القضاء عند الحاكم بأمر الله كان من أروع المناصب وأجلّ الوظائف؛ فكان القاضي لديهم من أرفع الموظفين قدرًا وأرفعهم شأنًا.

الثالثة:

كان من شأنها تعليم موظفي الدعوة الإسماعيلية الصحيحة، الذين كان يعهد إليهم بالدعوة للمذهب الإسماعيلي كالوزراء والدعاة والمأذونين، وكان هؤلاء يتلقون علومهم في الفلسفة والمنطق والنجوم وأصول الفقه في الأزهر، وحين يبلغون أشدهم فيه يذهبون إلى دار الحكمة للقيام بمهام شؤون المذهب؛ كي لا يشكوا عثرات الطريق في أثناء مهمتهم التي أسندت إليهم، وإن القسم ذاك في دار الحكمة كان يُدعى مائدة الرشد، لأنها كانت تتفجّر منها ينابيع الحكمة ويسطع منها نور الهدى، وقد كانت لوزراء الدين والدعاة رتبة سامية في الدعوة.

ولهذه الأسباب التي ذكرها المؤرخ الإسماعيلي عبد الله بن المرتضى، فإننا يجب أن نقول إن الدولة الفاطمية اعتمدت على دار الحكمة والأزهر

في تخريج القضاة والدعاة منها إلى أرجاء البلاد وخارجها، وإرساء نفوذ الدولة الفاطمية داخل وخارج البلاد بالدعاة والسياسيين والقضاة والعلماء، ولكن نهاية هذه المكتبات القاهرية كانت وخيمة؛ إذ أدرك صلاح الدين الأيوبي أن القضاء على دار الحكمة والأزهر سيقضي على الحراك الفكري لدى الإسماعيلية، ليس في مصر فقط، بل في العالم الإسلامي كله، بل إنه ظل يلاحق دعاتهم وأئمتهم ليقتلهم بعد أن انقلب على الحكم الفاطمي وأعلن الخلافة للعباسيين ثم حولها لدولته، وهنا سنسرد قصة القضاء على تلك الصروح العلمية الشاهقة.

ففي تلك الحقبة الأخيرة من الدولة الفاطمية تسلَّم منصب الوزير الأول صلاح الدين الأيوبي، الذي عزل الأسرة وحجّم قدرتها على الوصول إلى قرارات الدولة، وأعلن الانقلاب، وخطب الأيوبي للعباسيين في القاهرة، معلنًا أن الدولة الفاطمية انتهت، وكان من ضحايا هذا الانقلاب العسكري مكتبة القصر الكبير ودار الحكمة الفاطمية التي كان تحتوي على 2 مليون كتاب ومخطوطة قام بتدميرها صلاح الدين الأيوبي بعد سنوات قليلة من انقلابه على الدولة الفاطمية والقضاء عليها سنة 556 هجرية، بعد أن ظلت صرحًا شاهقًا طوال 196 سنة، وهنا يقول المفكر والطبيب المصري أحمد راسم[1]: «على الجميع أن يعرف أن صلاح الدين كان يريد محو تاريخ من سبقوه، حيث قام بتدمير أهرامات الجيزة والمكتبات الفاطمية، كما أحرق مئات الآلاف من الكتب والمخطوطات وقام ببيع بعض الكتب الفاطمية بثمن بخس».

ومن هنا نعرف أن صلاح الدين لم يكن ناقمًا فقط على المكتبات

(1) **خطط المقريزي**، ج2، ص 255.

الفاطمية، بل حتى على بعض الأهرامات التي تعتبرها بعض المذاهب المتشددة أصنامًا ويجب تدميرها، وهنا نرى أن النزعة المذهبية التشددية لدى صلاح الدين كانت تهدف إلى القضاء على كل مذكّر للشعوب بتلك الحضارة حتى لو كانت مسلمة؛ فهي لا تخدم الاتجاهات المتشددة، ولعل الآراء المعاصرة كان لها نصيب من هذا الموضوع، ومنها رأي الدكتور محمود إسماعيل، الباحث والمؤرخ المصري، الذي قال: «إن صلاح الدين الأيوبي أكثر من اضطهد الفاطميين عندما قضى على دولتهم، من أجل دولته الوليدة»، مضيفًا أنه أحرق أعظم مكتبة أنشأها الفاطميون وهي مكتبة دار الحكمة التي كانت تضم كثيرًا من المخطوطات الدالة على فترتهم، وكان من شأن هذه المخطوطات أن تعرّفنا أكثر بعصرهم»[1].

هذا إذا ما عرفنا أن صلاح الدين الأيوبي وقف بجيشه مطلًا على اليمن للبحث عن الدعاة الإسماعيليين الهاربين من مصر إلى اليمن، وكان لصلاح الدين دور كبير في دعم بعض التحركات لدول المجاورة قامت بدورها بإسقاط الدولة الصليحية أيام الملكة الحرة أروى الصليحي.

وعلى الرغم من كل ما قدمه الفاطميون من مشروع فكري تم تدميره فإن أتباع المذهب الإسماعيلي، بفرعيه النزاري والمستعلي، وهما اللذان انقسما قبل 60 سنة من انهيار الدولة الفاطمية، احتفظوا بجزء من الكتب الفاطمية، وتم إرسال بعضها إلى اليمن وبعض آخر إلى فارس والشام، وبيعت بعض الكتب النفيسة بثمن بخس، وأُهدي بعضها من قبل صلاح الدين الأيوبي[2]، وأكبر الدلالات على غزارة الكتب الفاطمية أنه في عصر الماليك، أي تقريبًا بعد 83 سنة من انهيار الدولة الفاطمية

(1) أحمد راسم، طبيب ومفكر مصري شيعي.

(2) علاء الدين عطاء ملك بن بهاء الدين الجويني، **تاريخ فاتح العالم** أو **جهانكشاي** بالفارسية.

ومن بعدها الأيوبية، ظهرت بعض الكتب والسير التي كتب بعضًا منها المؤرخون كالشافعي تقي الدين المقريزي الذي دوّن الكثير من الكتب عن الحقب الإسماعيلية الفاطمية أهمها سيرة **اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء** التي تعتبر من أهم المصادر التاريخية، وهنا يجب أن نشير إلى أن المؤرخين أطلقوا على مستعلية اليمن لقب الدعوة القديمة لأنها احتفظت بأغلب كتب الفاطمية، وعكف دعاتها على تأليف العشرات بل المئات من الكتب.

فكرة تدمير هذا الإنتاج هي عمل ديناميكي منظم كان القصد منه إخفاء تاريخ هذه الحركة الفكرية إلى الأبد وبعيدًا، ويجب أن نقول إنه لولا ضعف الوجود الإسماعيلي السياسي، خصوصًا بعد حقبة الخليفة الثامن المستنصر بالله، التي كانت بداية الانهيار النهائي للدولة، والتي أثارت انقسامًا سياسيًا خطيرًا بين ولديه نزار والمستعلي، وتولّي الحكم العسكري بوجود الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان وزير الدولة الأول والمتحكم بزمام الأمور في الدولة، ما كانت لتضعف بشكل كبير الوتيرة المعرفية حتى توقفت حين وصلت الخلافة الفاطمية إلى آخر خليفة فاطمي وهو العاضد بالله إلى فارس.

ومن القاهرة، مرتع العلوم والصروح الفكرية، وصلت الكتب والأعمال الإسماعيلية إلى فارس، وتحديدًا قلعة آلموت، وهي الفترة التي أطلق عليها المؤرخون العهد الجديد للفكر الإسماعيلي، الذي أخذ يذوب في قوالب عرفانية مختلفة في فارس ويواكبها. هنا، عندما نريد الإسهاب في المعارف ومكتبات فارس ووسط آسيا، لا بد أن نتحدث عن تلك الشخصية الفذة التي كتبت هذا العهد الجديد والقوي للحراك الإسماعيلي، أي الحسن الصباح الحميري وخلفاؤه في آلموت، وهو

الذي كان له الفضل الأول في بناء منارة معرفية في ظروف سياسية مضطربة مر بها العراق وفارس، بداية بضعف الدولة العباسية، العدو الأول لفاطميي القاهرة ونزارية العراق وسوريا وإيران، وتوسع نفوذ الإمبراطورية السلجوقية القادمة من الشمال، التي وضعت لها قدمًا في التاريخ الإسلامي، وكان لها شأنها الخاص في تعميق الدور السني عبر انتشار المدارس النظامية التي بثت العلماء وأنشأت حقبة سياسية دينية جديدة، فكان الخطر السلجوقي على القلاع الإسماعيلية يتجدّد بغية تدميرها والتخلص مما يعتبره السلاجقة خطرًا على دولتهم، إلا أن ذكاء ودهاء الحسن الصباح لم يوقفهم وحسب بل كتب نهاية السلاجقة، بعد أن أوعز إلى الفدائية قتل وزير الدولة نظام الملك الذي مهّد لانهيار العهد العسكري التركي الذي كاد يحكم قبضته على الهلال الخصيب من وسط آسيا إلى البحر المتوسط، ليعود الصباح ويتنفس الصعداء ويرتب ويستولي على بعض القلاع المحيطة لتوسيع نفوذ دولته الصغيرة ووضع الخطط لتأمين الساكنين والعارفين فيها، وظل الحسن الصباح ثلاثين سنة لا يخرج من قلعة آلموت، إذ كان زاهدًا متواضعًا ودارسًا للمعارف، حتى وفاته، وقد رسم المرحلة لما بعدها فيما سبق، إذ نظم الدعاة وارتبط بإسماعيليي سوريا النزاريين وترك خلفه تنظيمًا دقيقًا جدًا مشى عليه الإسماعيليون حتى أتى الخطر القادم من جوف وسط آسيا وهم المغول أو التتار الذين كتبوا نهاية قلعة آلموت أو كما تعرف بالعربية بقلعة عش النسر.

وهنا نريد القول إن من يقرأ تاريخ الجماعة الإسماعيلية في فارس وسوريا، ومع كل تلك الاضطرابات السياسية، يستغرب كيف لمثل هذه الجماعة الأقلية أن تحافظ على توازنها الوجودي والمعرفي؟! وما هي القوة النابعة من جوف هذا التراث الذي يناضلون من أجله، وهنا فإن

المستشرق الروسي إيفانوف يقول بأن «المكتبات النزارية في آلموت لم يكتب لها الظهور إلا بعد أكثر من سبعين سنة، وهي التي يعتبرها فترة خاصة بالاتصال بالدعاة من كل مكان في الشام ومصر واليمن وجمع المعارف، خصوصًا بعد انقسامهم وسقوط الدولة الفاطمية التي عانوا صعوبة كبيرة في جلب إنتاجاتها الفكرية إلى فارس»[1]، والتطرق إلى صعوبات، ليس لبقاء الجماعة وإنما لمحاولة إعادة بناء دولتها المنهارة في القاهرة بعاصمة نظيرة لها وهي آلموت، ولكن الانقسام الحاد بين الإسماعيلية المستعلية والنزارية جعل هذه المهمة صعبة، إذ كان دعاة القسمين يعيشون في ربكة من القناعات والتفضيلات في من تحقّ له الإمامة من بعد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، ولكن الأمر لم يتوقف هنا فقط، بل تطور إلى عودة العباسيين وحلفائهم السلاجقة لرصد حركة الإسماعيلية، باعتبارها خطرًا محدقًا على دولتهم السنية بعد ثورات عدة قامت في بغداد في عهد المستنصر، منها ثورة البساسيري الذي أقام الخطبة في بغداد للخليفة الفاطمي، وكل تلك الإشارات وضعت كثيرًا من العثرات وصعّبت مهمة عودة الفاطميين بذلك الشكل الذي يطمحون إليه في إنشاء دولتهم في فارس، وحتى بعد اتحاد دعاة النزارية عسكريًا وفكريًا وتحت لواء داعٍ واحد وانفصالهم كليًا عن مستعلية اليمن، فإن الأمر برمته كان صعبًا جدًا، ولكننا نرجع لنقول إن الإسماعيلية كانت لها مآثر علمية انتهت بإحراق هذه الإنتاجات العلمية.

وحتى في عيون من يعتبر الإسماعيليين أعداء له، فقد كانت هناك إشادات كبيرة بالجهود المعرفية للدولة النزارية في آلموت، ومن أشد المؤرخين وأشهرهم قسوة على تاريخ النزارية والحسن الصباح وجماعته

(1) فلاديمير إيفانوف، روسي مُؤسس في الدراسات النزارية الإسماعيلية الحديثة.

عطاء ملك الجويني المؤرخ الفارسي المعروف صاحب كتاب **تاريخ جهانكشاي**، إلا أنه لم يخفِ إعجابه بالمكتبة الإسماعيلية في آلموت وبعض المناطق المنتشرة في فارس كمكتبة سمرقند وغيرها[1].

العجيب أن المكتبة آلموت ذائعة الصيت، قبل تدميرها مع القلعة، وهي التي أبدى مؤرخ المغول عطاء ملك الجويني إعجابه بها، وهو آخر من دخل المكتبة الإسماعيلية بعد أن أعطاه الزعيم هولاكو الإذن، إذ استخرج من تلك المكتبة معلومات قيمة عن دعوة الإسماعيلية النزارية وسيرة مؤسس دولتها بإيران الحسن الصباح وأكملها بما دوّن من أخبار في كتابه **تاريخ جهانكشاي**[2]، ويختتم الجويني، المتعصب السني الخادم في بلاط المغول، فصله عن الإسماعيلية في كتابه **تاريخ فاتح العالم** هو (أي ركن الدين خورشاه) وأتباعـه أشبعوا ضربًا ثم وضعوا على حد السيف، وأنه لم يبق أي أثر منه ولا من شعبه، وما تحول إلا إلى حكاية على شفاه الناس وأثر من آثار العالم، وهنا يضعنا الجويني في بوتقة تصديق روايته بانقراض الإسماعيلية في فارس بعد هذه الحادثة، وفي الحقيقة فإن نزارية فارس تعرضوا المذبحة لا تقل عن مذبحة المغول، وكانت عن طريق تيمور لنك سنة 819 هـ على مقربة من الديلم، إذ يصفها المؤرخ المرعشي: «مياه النهر الأبيض (سيفدورد) تتحول حمراء بسبب دماء أولئك الذين قتلوا»[3]، وللعودة إلى دمار آلموت ينقل لنا المستشرق الألماني هانز هالم قائلًا: عندما استسلم ركن الدين خورشاه، آخر أئمة وأسياد قلعة آلموت،

(1) عطاء ملك الجويني مؤرخ هولاكو، الذي رافقة ضد حملاته على فارس وبغداد.

(2) كتاب **جهانكشاي**، أحد أهم الكتب التي أرخها عطاء ملك الجويني، والذي يتحدث عن الحقبة النزارية في آلموت.

(3) **مرعشي، جيهان وديلمسان**، ص 129.

للخان المغولي؛ هولاكو، حفيد جنكيز خان، سنة 1256م، وخضعت قلعة آلموت له، كان ذلك إيذانًا بنهاية مكتبتها أيضًا، وعلى الرغم من صعوبة الوصول إلى القلعة التي تقع على قمة جبل البروج والقلعة ترتفع بمسافة 6000 قدم وليس لديها إلا ممر وحيد ضيق للغاية وصمدت قرابة قرن من الزمان، إلا أن دهاء هولاكو المغولي في إدارة المعارك كان هو الفيصل، ففي عام 1256م تسلّق الجنود المغول أسوار القلعة العالية واستولوا عليها، ومن ثم أضرموا النار فيها لتتحول إلى رماد، وفي القلعة المجاورة الإسماعيلية التي تسمى لامسار استطاع الإسماعيليون أن يصمدوا لمدة سنة قبل أن يعود المغول ويدمروها، ومنها نستنتج أن المكتبات المعرفية تم حرقها والقضاء عليها، وتحديدًا بعد موت الإمام ركن الدين خورشاه الذي وقع تحت قبضة المغول وعاش أسيرًا، ليكتب التاريخ نهاية مكتبة الفارسية ودخول الكتب والمعارف إلى طور الستر والابتعاد بالكتب النفيسة عن عيون العامة إلى ظهور المستشرقين. ويكثر الادعاء حول كثير من الكتب التي هربت إلى وسط آسيا وإقليم بدخشتان والهند مؤخرًا، خصوصًا عندما نتتبع سيرة الشاعر الإسماعيلي الذي ظهر في فترة ما بعد الموت نزاري قهستاني الذي يعتبر أحد القلة الذين هربوا من تلك المجزرة الآلموتية، إذ اتبع الإسماعيليون طرق استتار صوفية التي تقيهم شر الأعداء لمدة طويلة، إلى أن كتب لهم ظهور الإمام بعد فترة طويلة في فارس العراق، وهي التي يرافقها سؤال ممتد على طول تاريخها القديم جدًا، وهو: لماذا كل هذه النزعة الدموية للأفراد والجماعات التي لا تفارق الحديث عن بلاد الرافدين؟ وهذا النزاع يقترن دائمًا بالقضاء على موروثاتها المتجددة والعرفانية. وعلى الرغم من نبرة السؤال التي تتزايد تدريجيًا مع الزمن فإن هذه الصفات العدوانية لا تزال محافظة على

حضورها الدائم في هذا التاريخ، ولا تكاد تفارق هذه البقعة، ولكن في نفس الوقت استطاع العراق، بفضل موقعه الاستراتيجي؛ باعتباره ملتقى حضارات الشرق بالغرب، تكوين بيئة خصبة من الحركات الفكرية، بل إنه تقريبًا صاحب الشأن الأعلى في خروج المذاهب بجميع أنواعها، التي بدورها استطاعت تشكيل التاريخ العربي والإسلامي، فعلى الرغم من تكثيف الجهود لدى القيادات الإسماعيلية في الحضور ونشر فكرهم في العراق فإن هذا الظهور كان يقابل في مرات بالقبول تارة والرفض والقتل تارة، ولأن هذا الفصل يتحدث عن المكتبات الإسماعيلية فإننا لا نستطيع إغفال وجود كثير من الشخصيات التي ظهرت في العراق واختفت أعمالها وكتبها ومخطوطاتها، ومن الأرجح أنها حرقت، ومن هذه الشخصيات الداعي عبدان، أحد نوابغ الدعاة الإسماعيليين في عصره، إلا أن المكايد التي سعت لقتله من قِبل القرامطة عجّلت في موته، وللأسف في اختفاء مؤلفاته التي لم يبق منها سوى عمل مشكوك فيه[1]، ومن هذه الشخصيات الصوفية الشهيرة الحسين بن منصور الحلاج الذي مثّل داعيًا سريًا لظهور الدولة الفاطمية قبلها بسنوات قليلة[2]، وهذا ما جعل السلطات العباسية في زمن المقتدر تقرّر ضرورة التخلص منه مع عدم إغفال حراكه الدائم للنزعة الصوفية وتكاثر أتباعة القادمين من كل مكان، ما جعل القضاة يعجّلون بالحكم بصلبه وتقطيع أطراف قدميه ويديه في أبشع صور التمثيل بالمحكومين في تاريخ العالم الإسلامي، كذلك قيل إن جلّ أعماله تم التخلص منها وحرقها ولم يبق إلا **الطواسين** وديوانه الشعري، وبعض الكتب المنسوبة إليه، وتوالت أسماء الإسماعيليين في

(1) **شجرة اليقين**، ألفه الداعي الإسماعيلي عبدان، عارف تامر، ص 11.

(2) **جنة الجنان**، أحد الكتب السليمانية الخاصة التي ذكرت أهمية دور الحلاج لدعوة الدولة الفاطمية.

الظهور، ولكنها اتجهت إلى القاهرة المعزية لتتلقن العلوم من دار الحكمة والأزهر الشريف بعد 184 سنة من الاستتار والتنكيل.

وفي بلاد الرافدين شهد عام 494 إحراق المكتبة الإسماعيلية في العراق، عندما أمر السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه جنوده بمطاردة الإسماعيليين النزاريين بعد قتلهم، بأمر من زعيمهم الحسن الصباح، وزير الدولة نظام الملك الذي قتله أحد الفدائية، وقد أعقبه موت ملكشاه سلطان السلاجقة، وهذا ما أشعرهم بخطورة النزاريين وضرورة التخلص منهم، بالأخص في فترة النزاع على السلطة بين الأخوة أبناء ملكشاه، ويقول ابن الأثير[1] إن كثيرًا من الأبرياء فقدوا حياتهم، فقد طُرد الإسماعيلية من أصفهان إلى معسكر بغداد وقتلوا وأحرقت كتبهم، إذ أوعز الخليفة السلجوقي بقتل أي مشتبه في إسماعيليته، فقتل كثير ممن لا علاقة لهم بالإسماعيليين والمتعاطفين معهم.

أما في اليمن فالحديث عن إحراق المكتبات الإسماعيلية في اليمن هو بمثابة الحديث عن تفاصيل متغيرة عما كانت عليه في القاهرة وفارس والعراق، وذلك يعود إلى أسباب عدة، أبرزها بُعد اليمن من عواصم الخلافات الكبرى كالأموية والعباسية والفاطمية وحتى العثمانية، والنقطة الثانية ارتباط اليمن بموروثه الثابت عندما نتحدث عن القبيلة والصراعات الدائمة بهذا الشأن، وهنا نستطيع أن نقر بحدة الاضطرابات السياسية، وعلى الرغم من التقلب المستمر في الدول المتوالية والحاكمة فإن غالبية النزاعات كانت تدور حول الإمامة الزيدية وسيادة الشافعية من المذهب السني والظهور المتواتر للإسماعيلية والحروب القبيلة التي

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، ص 490.

كانت دائمًا تنتهي بمنتصر واحد، وهنا كان الإسماعيليون يدورون حول مصير مشترك بينهم وبين أطراف النزاع، فالإسماعيليون كانت لهم دولتهم القصيرة قبل قيام الدولة الفاطمية على يد أحد دعاة الإسماعيلية الحسن ابن الحوشب، والداعي الآخر علي بن الفضل الذي انشق مؤخرًا ومات مسمومًا، ولم تكتب السير عن وجود مكتبات في تلك الحقبة، وفي أثناء الدولة الفاطمية كانت هناك الدولة الصليحية التي كان لها أثرها المميز في التراث اليمني، وبالأخص في عهد الملكة الحرة أروى الصليحي، على الرغم مما قدمه الصليحيون دعاة الخلافة الفاطمية في اليمن من نهوض معماري ومدارس إسماعيلية وعدد كبير من الدعاة. بالأخص عندما نتكلم عن الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي التي كان لها الفضل الكبير في إرساء قواعد الفكر الإسماعيلي وبناء المكتبات، إلا أنه سرعان ما انهار كل شيء بعد وفاتها؛ إذ تحولت الإسماعيلية من قاعدة فكرية سياسية إلى مجرد أقليات تقاتل من أجل أن تعيش وتمارس شعائرها وواجباتها الدينية، والسبب يعود إلى التقلبات السياسية وأطماع تحقيق نبوءة الإمامة لدى المذهب الزيدي، الذي حقق ذلك في منتصف القرن الثالث الهجري على يد مؤسس الدولة القاسمية الهادي يحيى بن حسين، الذي استمر من خلاله حكم أئمة الزيدية قرنين من الزمن حتى استطاع الصليحيون الثورة وخطف الحكم من القاسميين عن طريق علي ابن محمد الصليحي، واستمر حكم الصليحين 104 سنوات حتى وفاة الملكة أروى الصليحي التي استطاعت توحيد اليمن تحت راية فاطمية[1]، وكذلك لا نغفل دعم الدولة العباسية لدولة بني نجاح السنية التي كانت تحكم أطراف اليمن، والتي كان تشكل تحديًا كبيرًا لصليحيين أتباع

(1) عارف تامر، **الملكة الحرة**، طبعة 1985.

الدولة الفاطمية والقاسميين أتباع الإمامة الزيدية، كما أن التحدي القبلي كان عاملًا مؤثرًا في التغيرات الجيوسياسة، وكان هذا أحد أسباب اندثار المعارف والمكتبات الإسماعيلية بعد زوال حكم الصليحيين.

وظهرت بعد ذلك دولة بني زريع من قبيلة يام في عدن الذين انفصلوا عن الصليحيين ومُنحوا الاعتراف من الحافظ بالله الخليفة الفاطمي الذي رفض الصليحيون الاعتراف به، لأنهم لا يرونه الإمام الشرعي بعد الخليفة المستعلي بالله؛ إذ ظل بنو زريع حكامًا على عدن لفترة قصيرة، ولكن ضعف الدولة الفاطمية ومعاركها مع الدولة الأيوبية التي أسقطت الفاطمية حالا دون استمرارهم في حكم عدن والجزء الجنوبي من الدولة الرسولية بعد قرنين من الزمن منذ عام 626 حتى 858 بعد استقلالها عن الدولة الأيوبية، إذ يتفق المؤرخون على أن دولة الرسوليين كانت من الدول التي حكمت بعدالة وازدهر اليمن في حكمها بشكل كبير، كما أن المذاهب الأخرى نالت حرياتها في المعتقد والممارسة إلى أن انقلبت أسرة بني طاهر على أنسابها الرسوليين في عدن وظهرت الدولة الطاهرية التي حكمت أجزاء من اليمن وعدن، وفي عهد السلطان عامر ابن عبدالوهاب الطاهري الذي يعتبر أقوى وأشرس حكام الطاهريين عام 902، وكنوع من تضييق الخناق على المذاهب الأخرى، أمر بتقييد أحد دعاة الإسماعيلية الذي يدعى الحسن بن إدريس والقبض عليه في تعز وأودعه السجن وأمر بإحضار كتبه وإتلافها[1]. وعلى الرغم من قلة المصادر فإن التاريخ لم يذكر سببًا منطقيًا لهذا الاعتقال، بينما اتفق المؤرخون على أن عهد عامر بن عبد الوهاب يعتبر الأشد ظلمًا للمذاهب الأخرى باعتباره يدين بالمذهب الشافعي، وبعد وجود العثمانيين في العهد

(1) أيمن فؤاد سيد، **المذاهب الدينية في اليمن**، ص 169.

الثاني كان مقر الدعوة الإسماعيلية الطيبية السليمانية قد انتقل من شمال صنعاء إلى نجران لدى يام وهمدان، وذلك بعد فرض من القاسميين بإبعاد الإسماعيليين عن أماكن مقر حكمهم، وكان ذلك في عهد الإمام المهدي أحمد بن محمد بن حسن، وتحديدًا في عهد الداعي المنفرد محمد بن إسماعيل الذي وصل إلى نجران قبيل عام 1200 هجري وبعد القاسميين وعودة العثمانيين في العهد الثاني، وفي عام 1289 هجري أمر الوالي التركي مختار باشا بإرسال الداعي السليماني وولديه وبعض من جماعة المكارمة وبعض كتبهم إلى الحديدة وفيها مات ومات ولداه في البحر الأحمر[1]، وعلى الرغم من أن سير وتاريخ الدعوة السليمانية لم يذكرا هذه القصة، فإنه قد يكون المقصود من الداعي أحد من ينوب لتسيير أمور الدعوة في اليمن، وأبناؤه المكارمة ليسوا هم بيت الدعوة الذين غادروا اليمن منذ أكثر من 93 سنة قبل الحادثة، ولكن كل إسماعيلي كان يطلق عليه المكرمي لانتمائه إلى المذهب الإسماعيلي في نجران، وعلى الرغم من أنها لم تذكر إلا في تاريخ حراز، فهذه القصة محل شك. بعد العهد الثاني للعثمانيين وتولي الدولة المملوكية السيادة على اليمن التي كانت تريد بهذه النسخة عودة أمجاد القواسم، ووفقًا لسياسة الدولة المتوكلية التي أسسها الإمام يحيى حميد الدين المتوكل على الله، والتي كانت تنص على عدم الاعتراف بالأقليات المذهبية كالشافعية والإسماعيلية وتهميش أبنائها واعتبار اليهود ذميين، إذ كان يرى أن سياسته ستقوي الدولة ضد الحملات الاستعمارية التي تتالت بعد الحرب العالمية الأولى، وأن وجود الأقليات سيكون له شأن في النفوذ الخارجي، في عام 1323هـ أمر الإمام يحيى حميد الدين بمصادرة كتب الإسماعيلية السليمانية في صنعاء وشمالها وكتب في الصفحة الأخيرة لهذه الكتب: «هذا الكتاب من كتب

(1) **السفر الثاني من تاريخ حراز**، ص 171.

الباطنية مما أخذ عليهم لهو من جملة تنيف على أربعمائة مجلد»، وكان ذلك في شهر ربيع الأول[1]. ويقال إن إسماعيليي الهند في عهد يحيى حميد الدين بذلوا العطايا للحكومة اليمنية لنقل تراث الصليحيين إلى مقر الدعوة لديهم في مومبي عن طريق البحر.

وفي وسط آسيا وجدت مكتبة الداعي الإسماعيلي ناصر خسرو، أشهر دعاة وفلاسفة الإسماعيلية، التي كانت أكبر مكتبة عامة في أفغانستان والتي احتوت على 55 ألف مخطوطة ومطبوعة نادرة تم حرقها كاملة على يد حركة طالبان في عام 1998م بعدما انسحب الروس وحل بدلًا عنهم المجاهدون الأفغان في كابل، لتفقد المكتبة آلاف الكتب القديمة.

المكاتب والمخطوطات الباقية

بدأت الاهتمامات تعصف بكتب الأبحاث، وهي التي بدأها المستشرق الفرنسي سافستر دي ساس 1938م الملقب بالشيخ المستشرقين الفرنسيين ببحثه عن (دين الدروز) أو الموحدين، ولحقه بعد ذلك كثير من المستشرقين والعرب الذين تحدثوا عن جوانب الحركة الفاطمية من دون التعمق بشكل أكبر، أما تفاصيل تاريخ الحركة الإسماعيلية فإن دراسات المستشرق الروسي فلاديمر إيفانوف دليل المراجع الإسماعيلية كانت بمثابة الحافز للعديد من الأبحاث والدراسات في تاريخ الفرق الإسماعيلية وانقساماتها التي ساهم فيها تطور الموضوعية للتاريخ بجميع أنواعه وبمختلف ظروفه حول العالم، أما في ما يعود على الأسلوب الأكاديمي والبحثي الذي يعتمد على الكتب الإسماعيلية التي ظلت لعشرات السنين حبيسة المخازن، بالأخص في اليمن والهند، فهي

(1) (شتروتمات).

دراسات اليمني حسين فيض الله الهمداني وعدد من الأكاديمين التي أنهاها الباحث الإيراني والمدير المساعد لمعهد الدراسات الإسماعيلية في لندن فرهاد دفتري في كتابه **الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم**.

ولكن يبقى الدكتور عارف تامر أكثر المحققين والمؤلفين إثراء للمكتبة الإسماعيلية بـ 103 كتب في الفلسفة والتاريخ، وقد حقق مئات المخطوطات من وسط آسيا واليمن والهند، وعلى سبيل أوسع كان لمصطفى غالب الفضل في إعادة تحقيق وتقديم سلسلة كتاب **عيون الأخبار وفنون الآثار** بأجزائه السبعة لداعي المطلق إدريس عماد الدين القرشي الذي يتحدث عن التاريخ الإسماعيلي، وقد كان بمثابة المصدر الأول بعد ذلك لجميع البحوث في هذا التاريخ العريض، وعلى الرغم من المآخذ التي أخذت تطارد تامر وكامل في بعض كتبهما من عدم دقة فإن كل هذا لا ينقص من حقهما كرائدين للمعارف الإسماعيلية في العصر الحديث.

وبعيدًا عن حرق المكتبات هناك من يرى نهب الكتب وإبعادها عن متناول أهلها نوعًا من العرضة للتجنّي والسطو الفكري لهذه الكتب الفكرية، وهنا يجب أن نسلط الضوء على مثل هذه التجنيات؛ ففي عام 1903 أحضر تاجر إيطالي يدعى كابروتي مجموعة تضم 60 مخطوطة عربية من اليمن إلى مكتبة أمبروزينا في ميلانو عاصمة إيطاليا، وكانت الأولى من نوعها التي تودع في المكتبة، وعندما تم فحصها اتضح أنها كتب إسماعيلية من وضع دعاة وأعلام هذا المذهب، كما اتضح أن بعضها كان يكتب بشفرات سرية سميت نسبة إلى أمبروسي القديس الراعي لميلان. وقد أسسها الكاردينال فدريكو بوروميو الذي بحث عملاؤه في مكتبات غرب أوروبا وحتى اليونان وسوريا لتحصيل المخطوطات والكتب.

وعلى نحو آخر من اهتمام العالم بتاريخ الإسماعيلية اكتشف الروس في عام 1903م أن هناك جماعات إسماعيلية في بلادهم ولكنهم يفضلون الاستتار على أن تظهر كتبهم ومعتقداتهم للعامة، وبعد أعوام عثر أحد مسؤولي مؤسسات الاستعمار الخارجي على مخطوطات لكتب إسماعيلية باللغة الفارسية تشرح العقيدة الفاطمية، وقد أودعت نسخة منها في المتحف الآسيوي بأكاديمية العلوم الروسية الإمبراطورية، وبفضل هذه المخطوطات تمكن الدارسون والأكاديميون من فحص التاريخ الإسماعيلي، بالأخص إسماعيليي أفغانستان في إقليم بادخشتان الذين ظلوا لسنوات طويلة يعيشون في عالمهم الخاص بعيدًا عن أي دراسات لمذهبهم، وبينما يحاول العالم استكشاف الإسماعيلية الفكرية طوال القرون الماضية إلا أن الطيبين في اليمن والهند ظلوا ألف سنة محتفظين بكثير من الكتب النفيسة التي لم يكتب لها الخروج إلا خلال القرن الماضي عن طريق باحثين إسماعيليين كانوا يحققون ويدققون تلك الكتب التي كانت في حاجة ماسة إلى نقلها من مخطوطات قديمة في طريقها للتآكل إلى كتب مطبوعة بأحدث آلات العصر، لتسهل قراءتها للمنتمين إلى المذهب والمستكشفين والباحثين عن هذا التراث الغني.

وعودة للقاهرة في العصر الحديث، وتحديدًا في منتصف القرن الثامن عشر، تم اكتشاف وثيقة الجيزة التي أعادت قراءة الدولة الفاطمية وعصرها بشكل مختلف، وهي مجموعة من المخطوطات التي عثر عليها في مصر القديمة وعرضت لعلماء القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت هذه الأوراق قبل اكتشافها موجودة في غرفة مخصصة للأوراق المهملة في معبد يهودي بالفسطاط، كما وجد عدد كبير منها في جبانة البساتين القريبة من المعبد أطلق عليها اسم وثيقة جنيزة القاهرة، ويقدر عددها بما

يتجاوز ربع مليون ورقة باللغة العربية وبالخط العبري، ويرجع تاريخ هذه المخطوطات إلى ما بين القرنين الرابع والسابع الهجري، ولقد وزعت بين مكتبات أوروبا وأميركا، وتتكلم المخطوطات عن جانب من حياة اليهود الاجتماعية من عقود نكاح وعقود عقارية وبعض المواضيع التي تتطرق إلى الحياة العامة لدى اليهود في عهد الدولة الفاطمية في مصر، وعلى الرغم من أهمية هذه المخطوطات واكتشافها بشكل متأخر في التاريخ، فإن مسألة ترحيلها إلى الخارج مثار شك وحيرة، وقد كان من الأولى أن تأخذ طابعًا عربيًا في الدراسات التاريخية.

ومواصلة لمسيرة اكتشاف المخطوطات عثر على مخطوطة في ثاني أكبر مكتبات العالم وهي دير سانت كاترين في سيناء، وكانت المخطوطة صادرة عن ديوان الإنشاء في مصر في عهد الدولة الفاطمية، وهي وثيقة الخليفة الفائز أبو القاسم عيسى المؤرخة بسنة 551 هـ 1156 م، طولها 488 سم وعرضها 21 سم، وتتضمن رعاية شؤون الرهبان وتأمين سلامتهم وأرواحهم وأموالهم ورد عدوان المعتدين عليهم، كما تتضمن دير سانت كاترين وثقية الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية مؤرخة بسنة 564هـ 1169م، يبلغ طولها عشرة أمتار وتتضمن نفس مضمون وثيقة الفائز بالله، وهنا علينا أن نقول إن المرحلة التي حكم فيها الفائز والعاضد كانت مرحلة انهيار تدريجي لدولة الفاطمية، إلا أن هؤلاء الخلفاء ظلوا محافظين على حرية المعتقد وحماية الحرية الفكرية للأديان والمذاهب الأخرى[1].

ومن أشهر المكتبات المزدهرة الآن في الشأن الإسماعيلي مكتبات

(1) **صحيفة فيتو الإلكترونية، الشيعة في عيون أقباط قبطية**، 12 أبريل/ نيسان 2013م.

المراكز الإسماعيلية ومعهد الدراسات الإسماعيلية التابع للآغا خان ومكتبة الجامعة السيفية في سورات الهندية التابعة للقسم الداودي.

وفي نهاية الفصل يجب أن نقول إن كثيرًا من حرق المكتبات وضياعها ونسبها لغير أهلها كان له دور كبير في إخفاء ومشكوكية بعض الشخصيات الإسماعيلية التي كان لها تأثيرها في التاريخ الإسلامي، أمثال أبي العلاء المعري وشمس الدين التبريزي والحلاج والمتنبي[1]، كما أن كثيرًا من المعارف الإسماعيلية نسبت إلى غير أهلها، مثل **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا** التي أخذ المؤرخون ينسبونها إلى غير أهلها.

---

(1) **أعلام إسماعيلية**، عارف تامر.

القوالب الفكرية
للمجتمعات الإسماعيلية

«الإسماعيلية أشياء مختلفة في أزمنة وأمكنة مختلفة».

برنارد لويس

تختص الإسماعيلية عبر التاريخ بثلاثة جوانب تتضح مما قلناه، وما سنقوله في هذا الكتاب؛ فكل جانب يعزز الآخر، ويدل على أهمية وجود ما قبله، وفي اعتقادي أن هذه الجوانب ساهمت، وبشكل فعال، في محافظة هذه الجوانب على وجودها على الرغم مما لحق بهذه الجماعة من ضرر من الداخل أو الخارج، وهذه الأمور الثلاثة تدور في جانبها الأول حول فكرة التقية التي عبّر عنها الإمام جعفر الصادق «التقية ديني ودين آبائي»[1]، وقبل أن نتجه إلى الجانب الآخر يجب أن نقول إن التقية هي الأذى الذي يتوقع المرء حدوثه والعمل بذلك بغية الأمان، والتقية هي لحماية النفس والفكر والممارسة الخاصة، والجانب الثاني هو مرونة الدعوة الإسماعيلية التي سمحت لها بالانصهار في أحلك وأعنف المجتمعات العربية وغيرها، والجانب الثالث هو شخصية الإمام من حيث الظهور كقائد روحي أو الاستتار[2].

(1) **دعائم الإسلام**، القاضي النعمان.

(2) **صراع البقاء، الإسماعيليون في العصور الوسطى**، ص 25.

ولأننا يجب أن نضع القوالب الفكرية للحركة الإسماعيلية تحت دائرة التحليل، فإننا يجب أن نسلط الضوء على أولى السمات التعجبية لهذه الفكر في حالتين يراهما العلم متناقضتين، ولكنهما تعطيان حلًا وسردًا مجزيًا، وهاتان الحالتان هما نظريتا الظهور والاستتار.

يمثل التناقض سمة أساسية في المحتوى الفكري للإسماعيلية، سواء بانتشارها الأفقي في الحاضر على امتداد الكرة الأرضية أو انتشارها العامودي عبر التاريخ، وهذا التناقض يرتكز على الظهور والانتشار والحوار، والسمة الأخرى ترتكز في الاختفاء والاستتار، وهنا نعرّف الستر بأنه الاختفاء والتنكر وحجب الشخصية الحقيقية عن الأعداء، وهي بالتالي جزء متأصل في الفكر الإسماعيلي، ولكن العجيب في هذا التناقض أنه كان يُدار بذكاء شديد على الرغم من وجود ضحاياه في التاريخ، ولكن التيارات الإسماعيلية استطاعت بذكاء، سواء في الحاضر أو عبر التاريخ، أن تبقى متشبثة بهويتها التي كانت تتقبّل دائمًا الإرث الثقافي للبلد الموجود فيه هذا التيار الباطني، بل إنها تتأصل فيه ببراعة لتبقى جماعة مسالمة في الداخل والخارج ما لم يحدث مهدد خطير لها.

أما أشكال الاستتار التي عرفها التاريخ عن الأئمة فكانت بوسائل تنكر عدة، بمهن كتجار أو أطباء أو باعة متجولين، وانتحال أسماء غير أسمائهم الحقيقية ونسب غير نسبهم لفترة بسيطة، والادعاء بوفاتهم لإبعاد الأعداء عنهم، ووجودهم في أماكن غير معلنة لأتباعهم.

وهنا يكون التعجب سيد الموقف لو قلنا إنه في عهد الاستتار الذي يشكل اللبنة الأساسية للدعوة الإسماعيلية من حيث الانتشار وطرقه والخوف من الأعداء والانصهار في مختلف أنواع المجتمعات وأشدها عداء، ومع كل هذا صنّف الإسماعيليون أروع الكتب والمصنفات،

وكان منهم العلماء الأفذاذ، فنحن هنا نتكلم عن **رسائل إخوان الصفا،** أهم مرجعية علمية فلسفية ظهرت في التاريخ الإسلامي، ونتكلّم عن شخصيات جدلية كالحسين بن منصور الحلاج الذي ما زال المؤرخون يشككون في إسماعيليته، وكذلك الفارابي فيلسوف المدينة الفاضلة في الإسلام، وهو أحد أهم دعاة الإسماعيلية في عهد الاستتار، وكثير من الأسماء السياسية التي ملأت كتب التاريخ كابن الحوشب وميمون القداح وغيرهما، لذلك يجب أن نقول إن طور الاختفاء كان عائقًا وجوديًا، بالإضافة إلى كونه فترة زمنية للإنتاج والحراك الفكري، ولنكن أكثر دقة وتوضيحًا وتعريفًا لهذه الفكرة يجب أن نقول إن الاختفاء يمثل شخصية الإمام الجسمانية، ولكن روحانية الانتماء لا تزال تدبّ في الأرجاء، حسب ما تعتقد الإسماعيلية، ولنضيف للموضوع حيزًا جسمانيًا بسيطًا يجب أن نفيه حقة في الطرح، فمن الأحرى أن نقول إن الاستتار والبعد عن الأنظار هو الطريقة المثلى للحفاظ على النسل، أو كما يعرف بخط الإمامة، إلا أن هذا الاختفاء الجسماني لا يكون عائقًا أبدًا في اختفاء المدد المعرفي للأتباع في أماكن الوجود الإسماعيلي.

ولكي لا نحيط بهذا السمة التناقضية طابعًا خصوصيًا في الإسماعيلية وحدها، فمن الأمانة العلمية يجب أن نقول إن التيارات المختلفة بجميع أنواعها العقائدية أو الفكرية على مر التاريخ الإنساني كانت تمر بنفس هذه المرحلة في الظهور والاستتار لسبب وحيد وهو الاضطهاد بجميع أنواعه، ويعرف الستر في المذاهب الأخرى باسم الغيبة، ولكنه غياب النبي أو الإمام جسديًا وروحيًا من دون أي وكيل عنه، ومن الأمثلة المسيح المنتظر لدى المسيحيين الذي سيظهر في آخر الزمان والمهدي المنتظر لدى السنة والاثني عشرية.

وهنا يقول الدكتور علي حسن موسى في كتابه **الستر والتقية في تاريخ الإسماعيلية** في صفحة 31: «ورغم ما أحيطت به حياة الأئمة من ستر وتنكر كاملين في الفترة الأولى التي امتدت أكثر من 184 سنة، وهنا نتكلم عن فترة استتار الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق إلى قيام الدولة الفاطمية، غير أن نشاط الدعاة الذين كانوا يحركون ويشرفون على مسارها كان كبيرًا، مع ما كشفت عنه الحركة الإسماعيلية بعامتها من تطور فكري عبر العديد من العلماء الأفذاذ وبتوجية الأئمة الكرام، الذين أعطوا الإسماعيلية بعدًا فكريًا متطورًا بعيدًا عن الانغلاق والتزمّت، ما شكّل نبضًا دافقًا في الدم الإسماعيلي المفعم بالحيوية»[1].

لذلك يجب أن نعرف أن الإسماعيلية بطابعها الفكري منذ ظهورها بشكل علني كحركة نشيطة ثورية في القرن الثالث الهجري أخذت على عاتقها كثيرًا من الصعوبات، ولكنها تجاوزتها، بالأخص التعليم في استتار وأخذ العهود والمواثيق على المستفيد، ومن ثم إتمام المهمة الموكلة له بعد ذلك، وهذا ما سنسهب فيه. فكان الدعاة لا ينقطعون عن الأماكن المستهدفة، وكان الأئمة يواصلون ابتكار الكثير من الطرق للتلقين، فمنها ما كان سريًا خاصًا جدًا لا يؤخذ إلا بالعهود والمواثيق، وكان بعض من الدعاة يخاف من التدوين والكتابة أكثر من المشافهة، كما قال الداعي اليمني محمد بن الوليد في مقدمة كتابه **ضياء الألباب** ما نصه: «إن هذه الأجوبة علوم أسرار علوم مصونة لا تودع بطون الدفاتر ولا تكشف إلا لمخاطب ممن رضي». وهذه إشارة إلى أن طرق التلقين للأتباع كانت تتخذ بدقة وسرية باعتبار أن هذه المعارف قد تفهم من العامة بشكل

(1) **الستر والتقية**، د. علي حسن موسى، ص31، دار الطباعة نينوى.

خاطئ وتشكل خطرًا على المجتمع الإسماعيلي، وهذا يوجد دائمًا في الأماكن المضطربة والعائشة على مر التاريخ تحت وطأة سياسة عدوانية تجاه الإسماعيلية، وعندما كانت المعارف الإسماعيلية تدون في الكتب كان يكتب في مقدمتها عبارات تطالب القارئ بأمانة الإذن قبل القراءة من ذوي الشأن، لكي لا يتكوّن للقارئ تصور مغالط يضعه في شبهة، وإن عدنا إلى فلسفة التلقين عبر العصور فإن الإنسان لن تتكون لديه المعرفة إلى التدرج وسلم المراتب المعرفية، فالمبتدئ ليس كالمتمرس أو الخبير، ومع التزام الإسماعيلية بهذا الإجراء ظهر منهم كثير من الأعلام والدعاة في جميع المجالات، إذ يقول الداعي المجدوع، أحد الدعاة الداودية الطيبيين، في كتابه **الفهرس**[1]: «تقسيم الناس على مدارج عقولهم، أو على حدود معلوماتهم، أو شدة إيمانهم وتعلقهم بمعتقداتهم، كان معمولًا به في جملة النهضات السياسية، ومن ضمنها الإسماعيلية، وأقدم ظاهرة في التاريخ الإسلامي كانت جمعية إخوان الصفا فهم قد قسموا الناس على مقدار سنوات عمرهم». وفي كتاب **سلم المناجاة** لأبي يعقوب السجستاني يقول: «جعلنا سبيل المعارف على التوالي الذي جاء الإيمان به».

والجزء الآخر هو المدارس ذات السمة العلنية في الدول الإسماعيلية المتتالية، التي كان النمط العلمي فيها متطورًا بكثير من أدوات العصر التي كانت تتوفر للعلماء والفقهاء في مجالات عدة، ووصلت الدولة الفاطمية إلى أعلى نمط تدريجي في العلم، وبالأخص عندما استحدث الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله منصبًا جديدًا في الدولة، إذ جمع بين

(1) **الفهرس للمجدوع**، وهو الشيخ إسماعيل بن عبد الرسول، إحدى الشخصيات الداودية في الهند.

منصب داعي الدعاة وقاضي القضاة وهي وظيفة الدعوة[1]، الذي يندرج تحته تنظيم دقيق لإدارة برامج الدعوة في الداخل وفي الخارج وتولي جميع القضايا وإلقاء الدروس على المؤمنين في مجالس دار الحكمة، ويندرج تحت وظيفة الدعوة اثنا عشر نقيبًا وكل نقيب يوجد تحته ثلاثون داعيًا بمجموع ثلاثمئة وستين داعيًا منتشرين في المواقع: مصر وأفريقية والحجاز واليمن والعراق وفارس وسوريا التي يسيطر عليها الفاطميون في العالم الإسلامي، وقد وصل التنظيم بسرية تامة في المناطق التي تخضع لسيطرة أعداء الفاطميين، وهذا التنظيم ساعد على غزارة المعرفة في العصر الفاطمي بشكل يجعل العاصمة الفاطمية تستقبل كثيرًا من طلبة العلم من أقطار العالم، وعلى الرغم من أن هذا المنصب تقلدته أسماء عدة، كقاضي قضاة الدولة الفاطمية النعمان وأبنائه، إلا أن هذا المنصب كان ينتظر شخصية ذات طابع وجهد أكبر حتى عيّن الخليفة الآمر فقيهًا مخضرمًا اسمه الفارقي الذي اجتهد كثيرًا لسبر هذا التنظيم، ولكن بدا وكأن المنصب يواجه كثيرًا من التحديات، وبالأخص عندما تنامى عدد المريدين في مجالس الحكمة وكثر طلبة العلم، وبالأخص في مجالس الحكمة التي يلقيها الخليفة نفسه، ومع ذلك لم يدم الفارقي طويلًا حتى عزل، ومن عجائب هذا المنصب أن الخليفة الحاكم بأمر الله عيّن قاضيًا سنيًا حنبليًا يدعى ابن أبي العوام الذي وصفت حقبته في تولي هذا المنصب بالناجحة نسبيًا[2]، وآخر من تسلم هذا المنصب شخص يدعى الختكين كان يحظى بثقة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ونجح في مهام عدة أوكلها إليه، وقيل إن له الفضل في جلب أحمد حميد الدين الكرماني

(1) بول ووكر، **الفكر الإسماعيلي في عهد الحاكم بأمر الله**، ص 68.

(2) المصدر نفسه، ص 70.

إلى مصر الذي لقب قبل قدومه إليها بلقب (حجة العراقين)، والحجة تعتبر من أعلى المناصب في الدعوة و«العراقين» هنا يقصد بها العراق وأجزاء من فارس، وهذه دلالة على أن الكرماني بزغ نجمه في سماء الدعوة الإسماعيلية وهو في الصغر، وهذا ما جعل الختكين يجلبه إلى مصر لتستفيد منه القيادة الفاطمية هناك.

ولكن الاضطرابات السياسية بعد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي شهدت انقسام الدعوة إلى فريقين، نزارية ومستعلية، وقد قرروا بالإجماع دخول الدعوة إلى طور الستر، والعجيب في الأمر أن الأئمة الفاطميين كانوا قد وضعوا تنظيمًا سريًا للمعارف الخاصة بالإسماعيلية تفاديًا لأي ظرف سياسي؛ إذ أمر بتسع درجات للإفادة بالعلوم المذهبية والفلسفة واللاهوت، بدايتها بإثارة الداعي أسئلة أمام المريد حتى يقع فيه الشك ويجعله مضطرًا للبحث والاستفادة ممن هو أعلى منه، والمرتبة الثانية هي أن يقرر الإمام ألا تؤخذ دروس الشريعة إلا من الأئمة أنفسهم، والمرحلة الثالثة هي أن يعرف عدد الأئمة والسير إلى أن يصل المستفيد إلى أعلى درجة بشرط أن يكون ملمًا إلمامًا تامًا بما قبلها[1]، وهذه المراحل قد تكون حلًا لمواصلة ركب الإفادة والاستفادة التي تعتبر في رأس الأولوية في روزنامة الدعوة، ولكنها لم تسلم من الانشقاق السياسي للدولة الفاطمية، وفي نفس الوقت تشتت أذهان الدعاة المنتشرين في بقاع الأرض عن فرضية هذا الإنقاص وظروفه، ومن صاحب الأحقية بالإمامة، وكل هذه الظروف أجّلت فكرة البت في نشر الدعاة والاستفادة، فهنا يقول إيفانوف: «إن النزارية ظلوا سبعين سنة حتى أعادوا نشر دعاتهم من آلموت»، كذلك

(1) بول ووكر، **الفكر الإسماعيلي في عهد الحاكم بأمر الله**، ص 86.

ظلت الملكة الحرة أروى الصليحي سنوات حتى قررت أن تنظم دعاتها بعد استتار الإمام الطيب أبو القاسم[1].

ولعلنا هنا نتوافق مع الفلسفات الاجتماعية والسياسية التي ترى أن الضمان السياسي هو الوحيد القادر على رفع مستوى الأدب والعلم، وأنه ليس هنالك أي ضمانات أخرى قد تقدم الاستقرار لأي فكر أو تيار، ولنكن أكثر دقة وإيضاحًا، فالأمر هنا يتعلق بفترة الاضطراب والتحوّل المفاجئ من العلنية إلى الاستتار، وهي فترة قد تعادل قرنًا من الزمان.

وزاد الأمر اضطرابًا لدى الأتباع وتعمقهم في طور أقسى مما رسمه لهم الدعاة، وبالأخص بعد سقوط الدولة الصليحية في اليمن ثم النزارية في فارس وسوريا وانتشار الإسماعيلية هربًا من ظروف القهر والقتل والفقر وابتعاد مراكز الدعوات في أقطار اليمن والهند والسند وفارس، حيث جعل الدعاة يعيدون النظر في طرق التلقين للمستفيدين وحصرها بالخاصة من أبناء المذهب، وكانت لذلك نتائجه في ظهور علماء واصلوا كتابة العلوم لفترة معينة ولكن سرعان ما انكمشت هذه المدارس الإسماعيلية حول نفسها تفاديًا لأي قوة مذهبية أخرى مسيطرة تلتفت إلى هذه الأقليات.

فنقلت الدعوة الطيبية مقر مذهبها من اليمن إلى بومبي في الهند والنزارية من فارس إلى كاجارات في الهند، وكل ذلك لسبب وحيد هو الابتعاد عن الاضطرابات السياسية في عالم الشرق الأوسط، فابتعاد الأتباع عن مقر الدعوة في عهد الستر يجعل المجتمعات الإسماعيلية تذوب في القوالب الاجتماعية في البلدان التي تعيش فيها.

(1) إيفانوف مستشرق روسي، كانت على يده بداية القراءة الحديثة للتاريخ النزاري.

وهنا علينا أن نقول بأن الإسماعيلية، على الرغم من كل ما تعرضت له من ضرر في الأنفس والإنتاج العلمي والانقسامات، فإنها كانت ذكية في التعامل مع الأكثرية في أي مكان وزمان من الشعب والتيارات المذهبية والفكرية الآخر، كونها أقلية على طول التاريخ، حتى بإنشائها لدولتها الفاطمية العظيمة التي كانت الإسماعيلية قليلة فيها مقارنة بالمذاهب والأديان الأخرى، وهذه الآية كانت بمثابة العكس مما شهدته سياسة الدول الإسلامية المتعاقبة بإرضاء الأكثرية من التيارات المذهبية ليتسنى للحكام حكم شعوبهم عبر فقهاء تلك المذاهب وهذا ما شهدناه.

وهنا يقول المؤرخ برنارد لويس: «الإسماعيلية هي أشياء مختلفة في أزمنة وأمكنة مختلفة»[1].

مرت الحالة الفكرية في الإسماعيلية بنمط اجتماعي مختلف، وهو نمط الشعوب، وهو عبارة عن مجتمعات متنوّعة تربطها مصالح اقتصادية ومالية وسياسية، والنمط القبلي الذي يرتبط بسلالات جدية في الميراث والسلطة، وهذه الأنماط كان لها دور كبير جدًا في تغير الحالة الفكرية من انتشار إلى انقباض وانكماش.

فالحالة الشعوبية كانت الزرع والحصاد للمعرفة الإسماعيلية، إذ كانت تتخذ التنوّع الطبقي والجذري في العروق دافعًا لها لإنجاب كثير من العلماء الذين وضعوا لهم ذكرًا في التاريخ، ليس لدى العامة من الإسماعيلية فقط، فلا أبالغ لو قلت للعالم ككل، ومن هؤلاء ابن سينا والفارابي اللذان أخذا كرمزين للمعرفة الإسلامية، فالأول من بلخ من بخارى في منتصف آسيا والثاني من فراب الفارسية، والسبب في نظري

(1) البريطاني برنارد لويس، **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية**، ص 150.

يعود إلى جودة وتنوّع المدارس الإسماعيلية التي انتشرت في منتصف القرن الثاني والثالث، والتي كوّنت دلالات عرفانية استثمارية كان لها أثرها الأكبر في الحالة الذهنية والفكرية الإسلامية، وبالأخص في العصر الفاطمي، ولكن هذه الحالة الرائدة والمثالية سرعان ما ضاعت بسبب صعود الصراعات المذهبية إلى الخصومة السياسية وتحوّل الخطاب العرفاني من مجموعة أفكار تتبادل وتنتج إلى أسلحة بيضاء تزهق الأرواح، وزاد الأمر تأزمًا مع دخول القرن السادس والسابع الهجري، حين تحولت الكيانات الإسماعيلية من شعوب متنوعة وذات مصالح مشتركة إلى نظام قبلي كانت له إيجابياته من ناحية الحفاظ على ما تبقّى من التراث ومحاولة مجاراة العصر وظروفه وسلبيته إلى محدودية التلقين المعرفي وتدرج الإنتاج، إلى أن وصلنا إلى نضوب فكري حاد ساعد على وجود بعض الصراعات في الإسماعيلية العالمية بجميع انقساماتها حتى القرن الثامن والتاسع عشر.

عندما قررت الدعوة الداودية في الهند، وهي أحد أقسام الدعوة الطيبية، بناء مجمع للتعليم في بومبي على يد الداعي سيف الدين، سُمّي المعهد السيفي، وتطور إلى أن أصبح جامعتين؛ داودية معترف بها لدى التعليم في الحكومة الهندية، ونزارية هي الأكثر تعدادًا، إذ بنى الآغا خان الثاني والثالث معاهد وجامعات؛ منها معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن وجامعة كراشتي في باكستان، لتطوير وتعليم المحتوى الثقافي لدى رعاياهم، ومما لا شك فيه أن إسماعيلية الداودية والنزارية الآغا خانية كونوا مجتمعات راقية يشاد بها في المجتمعات الخارجية بأخلاقياتها وانضباطها، والتي يتضح أن لها شأنًا كبيرًا في المستقبل.

أما في الدعوة السليمانية؛ أحد فروع القسم الطيبي في نجران بالمملكة

العربية السعودية واليمن، فقد أخذت القبلية على عاتقها في ظروف العصر وتقلباته السياسية تنهش في كيانها وتقلل من رقعة انتشارها، إلى أن وصل الحال إلى تعددية القبائل المنتمية إلى هذه الدعوة في الجزيرة العربية، وعلى الرغم من أن هذه المكونات الاجتماعية ظهرت بشكل متماسك إلا أن هذا التميز الخلقي وأخلاق البادية الأصيلة أبعدا النطاق المعرفي عن المجتمع، ولو قليلًا، وسرعان ما أخذت مياه المعرفة تنضب بسبب الحذر ومشكوكية العداء الأكثر في المناطق والتيارات المحيطة، وتتجه تلك الأراضي إلى الجفاف والعودة إلى الانكماش خلف مكون القبيلة البدائي الذي يرتكز عادة على النظر في الأمور من جانب أيديولوجيا قديمة تقوم على عراقة النسب والسيادة المطلقة لزعامات القبيلة التي عادة ما ينزهها الرعايا ويجلونها، ويُرى أن الأدوار التي تقوم بها تندرج تحت المصلحة العامة، وعلى الرغم من محاولة أرباب الفكر الإسماعيلي، طوال الثلاثة قرون الماضية، أن يحافظوا على الحالة الذهنية للمذهب بشكلها القديم الاشتراكي، إلا أن الانعكاسات والتطورات الفكرية أفشلت هذا الحفاظ، لتضطر إسماعيلية الجزيرة العربية إلى التسليم للأمر الواقع وتذوب داخل قوالب القبيلة التي تعتبر الخطاب الأعلى صوتًا في جزيرة العرب.

والإسماعيليون في الجزيرة العربية المتمركزون في اليمن كانوا من ضمن أكثر الطوائف معاناة بسبب الأحداث السياسية العاصفة منذ أن أرسل الإمام محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق أول دعاته الحسن بن حوشب وعلي بن الفضل، اللذين لم يتفقا على طاعة الإمام في وقت متأخر، فالأول انتشرت دعوته إلى أن توفي وهو تحت الطاعة والثاني نكث الطاعة برفقة مساعده فيروز، ولكنهما في النهاية سقطا تحت ثورات محلية حاكمة، ولأن اليمن كان مطمعًا بسبب موقعه

الاستراتيجي ومكانته في الجزيرة العربية، كان الإسماعيليون يتوقعون أن يستطع نور الدور الفاطمية منه، ولكن أبا عبد الله الشيعي كان قد بنى الدولة في شمال غرب أفريقيا لتكون بعد ذلك منارة نور الفاطميين.

وبعد ذلك بقرنين عاد الإسماعيليون لينشئوا الدولة الصليحية بمساعدة الدولة الفاطمية، وبعض المؤرخين يرونها امتدادًا للدولة الفاطمية، إذ قدّموا نموذجًا عمرانيًا ساحرًا لليمن، بالأخص في عهد الملكة الحرة أروى بنت محمد الصليحي التي وسعت رقعة الدولة إلى أجزاء من عمان ونشرت المدارس والمساجد، وكانت المسؤولة من قبل الخليفة الفاطمي عن جزء السند والهند.

ولكن سرعان ما انهار الصليحيون بسبب الثورات التي لا تتوقف ضدهم وبعض المشاكل الداخلية، وانقسموا إلى فرع دولة بني زريع اليامية التابعة للخليفة الفاطمي الحافظ بأمر الله والدعاة الموالين لأحد أبناء الإمام المستعلي بالله وهو الطيب بأمر الله الذي دخل في طور الستر، فتلاحق الدعاة الذين ابتعدوا عن الحراك السياسي وأخذوا يصنفون الكتب والأعمال الفلسفية والدينية، ولكنهم عاشوا ضمن نطاق أقلية غير مرغوبة، فكان حكام الدول القاسمية والطاهرية والرسولية والعثمانية يقتلونهم ويشردونهم ويتخلّصون من أعمالهم، إلى أن قرر الدعاة المغادرة إلى بومبي عاصمة الساحل الشرقي في الهند، إلا أن بقية الدعوة كانت ما تزال متمسكة باليمن أرضًا لها، وعانى الدعاة في الهند من القمع بسبب اضطهاد الطوائف المسلمة من قبل الهندوس، إلى أن ذهب الداعي داود ابن عجب شاه إلى الملك المغولي وشرح له معاناة الدعوة، فأمر بعدم مضايقتهم وأن يقوموا بشعائرهم كما يحلو لهم، إذ عكس الإسماعيليون تميزًا اجتماعيًا وانصهارًا مثاليًا في المجتمعات الهندية، وبعد الانقسام

السليماني والداودي عاد السليمانيون إلى اليمن ليواصلوا رحلة المعاناة من دولة الإمام الزيدي الذي بدأ خلافته بالتنكيل بالدعوة ودعاتها، إلى أن استقر الدعاة عن طريق الداعي محمد بن إسماعيل المكرمي في نجران، ومن هنا بدأ عهد مُشرق للسليمانية بفضل القبائل الموالية مثل يام وهمدان، أما الداودية في الهند وأجزاء من اليمن، فعاشت مزدهرة بشكل مثالي ولم تعد تعاني سوى لسنوات بسيطة من بعض المضايقات، ولكن سرعان ما كانت تعود الأمور إلى وضعها المستقر.

وعلى الرغم من صلابة القاعدة الأساسية للفكر الإسماعيلي والحفاظ الكبير على تلك الكتب النفيسة والأعمال التي كتبها الدعاة القدماء في الشعر والفلسفة واللاهوت والطبيعيات والشريعة، فإن أحدث نص كتب في الجزيرة العربية كان قبل قرابة سبعين سنة بيد الداعي المطلق علي بن حسين المكرمي؛ زعيم الطائفة السليمانية في نجران، وهو كتاب **الشهب اللامعة**، الذي كان يحكي عن سيرة الداعي الطيبي سليمان بن الحسن، وصنّف نفس الداعي عددًا من الكتب الأخرى، إلا أن هذه النصوص لم يكتب لها الظهور للعامة، أو لنكن أكثر دقة لم تطبع، وكان هناك كثير من الأعمال المشابهة لبعض الشخصيات ولكنها لم تتجاوز كونها أعمالًا في التاريخ والسيرة، كما أن الكتابة والتأليف قد يصطدمان أحيانًا بعدم رغبة الداعي في صدور أي كتاب أو ظهورة كنوع من الحكمة في ذلك.

وفي صنعاء ظهر قبله الكاتب والمؤرخ الكبير حسين فيض الله الهمداني الذي كانت له إسهاماته الجليلة في بحث وتحقيق كثير من المخطوطات الإسماعيلية وتأريخ الحقبة الصليحية وغيره ممن لم تظهر إنتاجاتهم في العصر الحديث.

وعلى الرغم من كل ما تحمّل هذا الإنتاج الخجول للمعارف الإسماعيلية من أسباب وجودية أو اضطرابات سياسية بحتة طوال القرن الماضي فإن هذا ساهم بشكل وبآخر في كتابة أسطر من الغياب الفكري للجماعة الإسماعيلية في الجزيرة العربية، وهذا ما تعتبره المؤسسات الأكاديمية الإسماعيلية في العالم في شلكها الحديث نوعًا من الابتعاد والاستقلالية عن المعنى الكوني والعالمي للإسماعيلية منذ ظهور أولى الدراسات عن طريق المستشرقين إلى افتتاح معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن والجامعة السيفية في الهند وجامعة كراتشي في باكستان.

إلا أن إسماعيليي الجزيرة العربية بمختلف انقساماتهم الحالية ظلوا بـلا مأوى أكاديـمي حديث وعصـري، مواصلين ركب التلقين للأتباع والمريدين بشكل تقليدي قديم، وعن طـريق حلقات صغيرة يكون فيها المعلم وبعض التلاميذ، وهذه الطريقة عُرفت في المدارس الإسماعيلية القديمة التي بدأ انتشارها على طول العالم الإسلامي في أوائل القرن الثاني الهجري، وهي التي ساعدت على انتشار هذا الفكر قديمًا، فيما يبدو أن فكرة الارتقاء بالمعارف الفكرية لدى إسماعيليي الجزيرة العربية إلى المنصات الأكاديمية لا تزال بعيدة المنال نظرًا لأسبابهم التي يؤمنون بصحتها وملاءمتها الوضع الراهن ونظرة مركزية الدعوة لما هو صالح لشأن العام لهم.

أما الأقلية الإسماعيلية في أوطان الجزيرة العربية في نجران وصنعاء والمنطقة الشرقية والكويت فتحظى بسمعة ناصعة نظرًا لارتباطها بقبيلتين عُرف عنهما الوفاء والشجاعة والشهامة، وهما يام وهمدان، وهما من أوائل القبائل التي نصرت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهنا نضيف أن المذهب سعى إلى فرض مزيد من الترابط الاجتماعي بين الأتباع،

كما أن القيادات الإسماعيلية تؤيد، بشكل لا يقبل النقاش، الولاء لحكام البلاد من دون التدخل في شؤون الحكومة، والبعد تمامًا عن المنعطفات السياسية ودهاليز المهاترات الإعلامية في المنابر بجميع أنواعها، وهذا التنظيم أعطى شكلًا استثنائيًا مقارنة بالمكونات الاجتماعية المحاذية أو المحيطة بهم، وساعد أتباع المذهب على الدخول في الأوساط الاجتماعية الأخرى من دون مشاكل، هذا إذا تم استثناء التيارات المتشددة من المذاهب الأخرى التي لا تزال تكنّ العداء للأتباع وتحاول مضايقتهم بكل الطرق، ومع تكاثر هذا النوع من المضايقات طوال قرن من الزمان، إلا أن دعاة المذهب ألزموا أتباعهم بالصمت والحكمة لعلمهم بأن الدعوة عبارة عن أقلية قليلة جدًا قد تأخذ الأتباع إلى منعطفات وخيمة، وإحقاقًا للحق، فإن القيادات السياسة في المملكة العربية السعودية أبدت نوعًا من التعاطف؛ ففي الفترة الأخيرة قررت الحكومة فرض حراسات مشددة على المساجد الإسماعيلية في أكثر من 54 مسجدًا في نجران والمناطق المجاورة لها.

الاشتراكية والعلمانية
لدى الإسماعيلية

«واعلم أن الناس صنفان، إما شريك لك في الدين وإما نظير لك في الخلق».

علي بن أبي طالب

تتخذ الإسماعيلية النموذج العلماني بداية بمقولة الإمام علي بن أبي طالب عندما قال: «يا مالك إن الناس صنفان، أخ لك في الدين ونظير لك في الخلق»[1]، وظل أئمة آل البيت يعمدون إلى هذه اللغة التي أعجبت عموم المسلمين في الأقطار، ولكنها بالمعادلة السياسة لا تحقق أهدافًا كما تراها الدول التي عاصرتها من أموية وعباسية وغيرها، ولنا في خطاب القائد الفاطمي جوهر الصقلي[2] في عام 358 هجرية أكبر العبر والدلالات على تصميم الفاطميين على التعلمن كسمة تضمن الحرية للنفس والمال وفصلهم العقائدي عن الدولة والحكم بين الناس بالعدل، وسارت مصر كنموذج متطور في عصور لم تشهد هذا النوع من النظام السائد بالمعرفة والتطور العمراني والسكني، على الرغم من اختلاف المكونات الاجتماعية في مصر، والسبب هو أن موقع مصر يجعلها

(1) **سيرة الإمام علي بن أبي طالب**، مجمع المبحث العلمي إيران.

(2) **تاريخ ابن كلخان**، ج3، ص 385.

القلب الذي يتوسط كلًا من أوروبا وآسيا وأفريقيا وبقية البقاع التي كانت تحت السيطرة الفاطمية، حتى كُتبت نهاية هذه المسيرة على يد صلاح الدين الأيوبي بعد قرنين من الزمان.

تعتبر الدولة الفاطمية والمجتمعات الإسماعيلية المنتشرة على صعيد الدول المنصرمة والمجتمعات والأفراد أحد منافذ الطابع العلماني والاشتراكي في تاريخ العالم الإسلامي، وأكثرها تطبيقًا ونجاحًا طوال الامتداد الزمني للحضارات الإسلامية والعربية، مع نماذج إسلامية سابقة عدة، منها البويهية في فارس ودولة المماليك في الشام ومصر ممن أخذت الطابع ذاته، والعلمانية هي طريقة الحكم بالمساواة والعدالة من دون النظر إلى عقيدة أو ديانة الفرد، ما جعل الناس يبدون متساوين في نظر الحاكم وأكثر أريحية للأقليات أو الأفراد في حرية المعتقد، في زمن كانت العقيدة فيه تتلوّن حسب الحاجة السياسية والنزاعات، أما تحت الاشتراكية أو المبدأ الاشتراكي فكان قد وضعه الخليفة الفاطمي وأول من حكم مصر من الفاطميين المعز لدين الله أمام قصرة في القاهرة بعبارة كتب فيها «الكل للواحد والواحد للجماعة»[1]. فعرفت بأنها نموذج الدولة الذي كانت من خلاله تستطيع أن تسيطر على السياسة الاجتماعية والاقتصادية، وهي منظومة مشابهة لما عرف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالشيوعية، إذ تُمكّن الدولة من حفظ القالب الاقتصادي والاجتماعي تحت ملكيتها الخاصة، ولا يحق للفرد التملك إلا في حالات استثنائية، وعلى الرغم من أن العالم لم يكن يعرف هذا النظام فإن الدولة الفاطمية استحدثته وطبقته، وذلك للتصدي لجشع التجار والتحكم في

(1) **سلسة الخلفاء الفاطميين ـ المعز لدين الله الفاطمي**، عارف تامر، ص 29.

الحركة التجارية والتحفيز على الإنتاج، إذ كانت الدولة تقدم المحلات بمبالغ رمزية لأصحاب الصناعات، كما استطاعت الدولة بهذا النظام أن تستقبل آلاف الطلاب القادمين من كل مكان وتقوم بإعاشتهم وتدريسهم، وليس هذا فقط، بل ساعد هذا النظام الدولة على جلب أهم العلماء من أقطار الدول العربية، لمساعدتهم في بعض مشروعات الدولة، ولنا في الخليفة الحاكم بأمر الله أكبر دليل عندما استدعى الحسن بن الهيثم من العراق ليساعده في مشروع الري للتحكم في منسوب النيل عندما أوعز لابن الهيثم بالذهاب إلى جنوب أسوان ومد خزانات من التخزين تساعد على التحكم في هذا المنسوب، ولكن ابن الهثيم فشل في ذلك[1]، وهنا وجد النظام بالأخص في عاصمة الخلافة الفاطمية القاهرة المعزية، ويقول في هذا الجانب الدكتور محمود إسماعيل في كتابه **الحركة السرية في الإسلام**[2]: «إن الإسماعيلية عبارة عن سياسة ثورية، أضافت على علم الكلام طابعًا فلسفيًا عميقًا وقادت صراع الطبقات المستضعفة ضد الإقطاع العسكري ونجحت في تحقيق قدر عظيم من العدل الاجتماعي حين أقامت دولة الفلاحين الاشتراكية جنوب العراق وإمبراطورية عظمى فيها قدر كبير من الليبرالية والديمقراطية امتدت من بلاد المغرب إلى مصر والشام واليمن».

ووصف لنا الرحالة والداعي ناصر خسرو في كتابه **سفر نامة**[3] ما كانت تفرضه الدولة من مبادئ اشتراكية كان لها الدور في أن يحظى الفاطميون بجانب اقتصادي يضعهم في قمة الدول الغنية في ذلك الوقت،

(1) **المجاعات في مصر الفاطمية**، أحمد السيد صاوي، دار التضامن، ص 9.

(2) **الحركة السرية في التاريخ الإسلامي**، الدكتور محمود إسماعيل، طبعة إلكترونية.

(3) ناصر خسرو، **سفر نامة**، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ويصف لنا خسرو قائلاً: «ويقدر أن في القاهرة 20 ألف دكان كلها ملك لسلطان وكثير منها يؤجر بـ 10 دنانير مغربية في الشهر، وليس بينها ما لا يقل عن دينارين، والأربطة والحمامات والأبنية كلها ملك لسلطان لا يحدها الحصر، إذ ليس لأحد أن يملك بيتًا أو عقارًا غير المنازل وما يكون قد بناها الشخص بنفسه، وسمعت أن للسلطان 8 آلاف بيت في القاهرة ومصر، وأنه يؤجرها ويحرص على إيجارها شهريًا، يؤجرها لناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء». ولو أن حديث خسرو لم يكن بالشكل التفصيلي الذي نريده إلا أنه بشكل أو بآخر يرسم لنا الملامح الاشتراكية في السياسة الفاطمية، إذ إن جميع الأبنية هي ممتلكات للدولة ولها ضريبة شهرية قد تساعد الدولة في التوسع في البناء والإعمار لمزيد من الاستقرار السياسي للبلاد ماليًا واقتصاديًا، وهذه الأعراف تبلور المعنى الأساسي للشيوعية التي وجدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، والتي كانت تمارسها الدولة الفاطمية قبل 9 قرون من الآن.

وعندما نتحدث عن مصطلحات الأنظمة المالية الحديثة التي استُخدمت في زمن سابق فهذا يعني أن الرؤية الاقتصادية للمجتمعات كانت متطورة بما يلائم ذلك الزمان، وعلى ضوء ذلك لا بد أن نقول إن الرواسخ العرفانية التي حث الخلفاء الفاطميون على غرسها كانت تؤتي ثمارها. صحيح أننا نتكلم عن التاريخ ولكن كان سيكون لها تأثيرها في الواقع وموروثات البلد هذه، إذا ما عرفنا أن كثيرًا من العادات الفاطمية الإسماعيلية ما زالت تمارس إلى يومنا هذا في القاهرة.

وفي ما يتعلق ببوتقة السياسة العلمانية التي اتبعتها الدولة الفاطمية في المبادئ المثلى والجوهرية في ما يتعلق بالفرد أو المجتمع كان يجب ألا نغفل خطاب القائد الفاطمي جوهر الصقلي عندما فتح مصر ونقل

العاصمة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة، إذ قال في خطابه الشهير: «الحمدلله الدائم الشامل الكامل المتأكد مع مرور الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم وقليلكم وكثيركم، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنّى عليكم متجنٍ، ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذهب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض على أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم»[1]. ومن هنا طبّق جوهر الصقلي المبدأ العلماني في حرمة النفس وحرية الفكر والمعتقد، كما أن الدولة تبقى بسيادتها بدون فرض معتقد الدولة على الفرد أو الجماعة، وهذه إحدى أهم ركائز العلمانية الحديثة المنتشرة في أرجاء أوروبا الحالية أو ما يعرف بدول العالم الأول. وفي عهد الحاكم بأمر الله كان هناك توجيه رسمي من الخليفة نفسة بضرورة عدم التدخل في عقائد الآخرين ما لم يأتِ مرسوم من الخليفة لهذا الاختلاف، إذ عاش في الدولة في عهده كثير من التيارات الفكرية والدينية التي ظهرت، منها الطائفة الدرزية التي كانت تقوم بحراكها الديني إلى أن أمر الخليفة بالقبض عليها وقتل اثنين من مؤسسيها؛ الأحزم والدرزي، اللذين حاولا الهرب إلى ما يعرف الآن بجبال لبنان جنوب الشام، والقبض هنا ليس للمعتقد وإنما لمحاولة إشعال فتيل ثورة ضد مبادئ الدولة القائمة. وكانت تزخر عهود الخلفاء بالتيارات الفكرية وتختلف وتصل في أحيان كثيرة إلى درجة الغلوّ ولكنها لم تكن تصل إلى درجة التحول إلى العنف كما نراه في زمننا الحالي، وهنا نحن لا نبرئ ساحة الإسماعيلية الفكرية كمذهب من الغلو، ولكن يجب علينا أن نرى كيف استطاعت المبادئ الفكرية لهذا المذهب قيادة الدولة الفاطمية إلى أبرز

(1) **الخطط لتقي الدين المقريزي**، ج1، ص 408، مطبعة بولاق.

معالم التاريخ الإسلامي لمن يقرأ التاريخ بدون تحيز لأي اعتبارات أخرى.

ويزخر التراث الإسماعيلي بكثير من أنماط الاشتراكية في التعايش والمساواة والعدالة مع جميع الأديان والمذاهب، ولنا في مقالة إخوان الصفا في رسائلهم الشهيرة: «ينبغى لإخواننا ـ أيدهم الله ـ أن لا يعادوا علمًا من العلوم أو يهجروا كتابًا من الكتب ولا يتعصّبوا لمذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم»[1] .

ولأن الاشتراكية والعلمانية خلّفتا اقتصادًا ضخمًا وجعلتا الفاطميين من أثرى أثرياء زمانهم كدولة وشعب، إلا أن هذا لا يغفل أنه حدثت في زمان المستنصر بالله مجاعة بسبب القلة الحادة في منسوب النيل في محنة السبع سنوات، التي امتدت ما بين عامي 457 ـ 464 هـ، إذ عرف أولها بعصر الخلفاء ونهايتها بعصر الوزراء [2]، والتي يرى بعض أنها أحد أسباب تحول الدولة الفاطمية من إقطاع الخلفاء الأئمة إلى إقطاع الوزراء الذين كانوا المتحكمين في الجيوش ومفاصل الحكم، حسب ما ذكر الدكتور حسن باشا في كتابه **الألقاب الإسلامية في التاريخ**[3]، وهنا جلب المستنصر قائد الجيوش الفاطمية بدر الجمالي من حلب وعيّنه وزيرًا أول للدولة الفاطمية، وسارت الدولة على هذا النهج حتى انهارت الدولة الفاطمية على يد وزيرها الأول، التي انقلب عليها صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع بأموال الفاطميين الطائلة تحقيق بعض انتصاراته على الصليبيين، إذ يقول المؤرخ ابن خلكان في تاريخه[4]: «ولما استولى

(1) **إخوان الصفا**، الجزء الرابع، وهي الرسالة 45، ص 41 ـ 42.

(2) **المجاعات في مصر الفاطمية**، ص 9.

(3) الدكتور حسن باشا، **الألقاب الإسلامية في التاريخ**، القاهرة 1978م.

(4) **تاريخ ابن كلخان**، ص 243.

صلاح الدين الأيوبي على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب لأهله ما أراد وباع منه كثيرًا، وكان فيه من الجواهر العلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك جمع على طول السنين وممر الدهور».

والحقيقة أن المصالح والاحتكار في عهد الوزراء أضرا بالنظام العام للدولة، بعد أن عاشت في أزهى صورها، ولكن ضرب المجاعة كان له الدور في كتابة العد التنازلي لنهاية الدولة، ومع كل ذلك ظلت الفاطمية ومدينتها القاهرة غنية جدًا، ويذكر تاريخ ابن خلدون أن صلاح الدين الأيوبي أهدى 13 ألف كتاب لقاضٍ يدعى البيساني[1] كان صلاح الدين يعده من وزرائه المهمين، كما أن أموال الدولة الفاطمية استطاعت تمويل صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين.

وفي العصر الحديث ما زالت نماذج النهج الإسماعيلي منتشرة في 25 دولة في العالم، تواصل ركب هذا النموذج، في شكل إما فردي مثالي نابع من جوهر العقيدة وإما في شكل جماعات ذات قالب اجتماعي سلس، وهذا مما ساعدها على الانصهار في أصعب وأعقد المجتمعات العنصرية والطائفية، في ظل التقلبات السياسية التي تشهدها الأقطار التي وجدت فيها الإسماعيلية طوال الألف سنة الماضية.

وهذا ما تسعى إليه الحالة الفكرية لدى الإسماعيلية بالعلمانية التي ترى فصل الدولة عن التعامل، حسب المعتقد أو الدين، وعدم إجبار أي أحد على تبنّي معتقد معين، إذ يعتبر من الحريات الشخصية، وجميع القرارات الصادرة عن الحكومة أو المؤسسة مبنية على علاقتها بالمعتقد، بل بالإنسان، وتعد الأنظمة العلمانية في وقتنا الحاضر من أكثر الأنظمة

(1) **تاريخ ابن خلدون**، دار الكتب العلمية.

تطورًا وإنسانية ونتاجًا فكريًا ومعرفيًا، وهذا النموذج تعمّد الفاطميون تطبيقه في إمبراطوريتهم خلال فترة حكمهم التي استمرت قرنين من الزمان في العالم الإسلامي.

ومن هنا نستطيع القول إن الإسماعيلية منهاج فكري استطاع ترسيخ أنظمة عدة عرفت الآن بحداثتها وطوّعتها لتكون بيئة مناسبة للحركة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي شهدتها في ذلك العصر، ومن جهتها فإن الإسماعيلية استمدت هذه الأنظمة من جوهر الموروث القائم على العلم والابتكار والتطور والتغيير.

كما أننا يجب أن نقول إن الموروث الفكري حمل نسيجًا تسامحيًا قلّ ما نراها في الدول الإسلامية التي تتخذ طابعًا مذهبيًا خاصًا بها. يقول جعفر بن منصور اليمن في كتابه **الشواهد**: «إن اليهود والنصارى وأتباع أي دين آخر يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات ويطيعون الله ويدخلون الجنة»[1].

وبعودتنا إلى القرآن والسنة النبوية سنعلم أن ما قاله جعفر بن منصور اليمن لم يكن مستمدًا إلا منها، وهذا ما تراه القيادات الإسماعيلية في ظهورها، أما في عهد استتارها، بجميع أقسامها وبمختلف البقاع الموجودة فيها، فتجد أمرًا محتومًا بضرورة التعايش والتسامح بين طوائف المجتمع والدولة وفصل الاعتبارات الدينية والعرقية عن علاقة الفرد بالمجتمع والسياسة والمحيط، بغض النظر عن الاختلافات الأخرى، سواء في المفهوم الديني أو المذهبي الخاص بالمجتمع أو الدولة أو البيئة.

وفي المجتمعات الإسماعيلية البعيدة عن السلطة حمل بعضها

(1) جعفر بن منصور اليمن، أحد أهم الدعاة في العهد الأول من الدولة الفاطمية، وله مؤلفات كثيرة تجاوزت 100 مؤلف بين الشريعة والفلسفة.

صبغات الفاطمية، ففي العصر الحديث مثلًا عمد الباحثون الروس[1] إلى إيجاد تفسيرات لوضع الإسماعيليين الاجتماعي، خصوصًا الموجودين في أقاليم بدخشتان وشمال القزوين، الذين كانوا يحظون بقبول كبير، وكانت هناك دراسة مستفيضة عن جذور هذا التسامح من قبل هـذه الجماعة، فدحض الباحثون ما ذكره بعض المؤرخين المستشرقين من أن الإسماعيلية هي نظام ريفي ناقم على الحياة المدنية التي أوجدها الإسلام، وقال الباحثون إن الإسماعيلية في خصوماتها كانت تقابل كلًا من الحكام والقادة ونبلاء المدينة والإقطاعيين الجدد ورجال الدين المجندين من السلطة وكل هؤلاء كانوا يسكنون المدينة، ولكن الإسماعيليين التاريخيين سكنوا المدن، بل انبثقت حركتهم الدينية من العراق، وانتشروا في بقاع العالم الإسلامي وبنوا دولتهم في شمال أفريقيا، وهذه كلها ذات نظام مدني قائم على التسامح والتعايش في حالتهم البعيدة عن الحكم والسلطة.

وعقائديًا أكثر التأييد لم يكن من العلماء السابق ذكرهم، بل من العمال والنبلاء القدماء والفلاحين، بل من الطبقات المظلومة في المجتمع التي اقتطعت أملاكها من أصحاب الإقطاعات الخاصة، وهذا ما أكسب الحركات الإسماعيلية قبولًا تارة ورفضًا تارة أخرى بسبب قوة الأضداد.

وعلى الرغم من أن الحكم الفاطمي كان إسماعيليًا شيعيًا فإن مفاصل الدولة لم تكن تخلو من أناس لهم معتقدات مختلفة، إذ كان البلاط الفاطمي لا يخلو من يهود ومسيحيين وشافعيين ومالكية وحنابلة، كما أن دار الحكمة والأزهر كانا يضمان كثيرًا من دور التعليم للمذاهب الإسلامية الأخرى بمختلف انتماءاتها، ومن أشهر الحلقات حلقة الفقية

(1) الإمام الدبيع، **قرة العيون**، ج1، ص 17، وابن كلخان، **وفيات الأعيان**.

المالكي عبد الوهاب بن النصر المالكي الذي ولد وترعرع في العراق ورحل إلى القاهرة حيث استقبله الخليفة الفاطمي عام 419 هجرية وعيّنه قاضيًا في الجامع الأزهر، وخصص له حلقات لتدريس المذهب المالكي والشريعة، ومن الشخصيات ابن أبي العوام الفقيه الحنبلي الذي عيّنه الحاكم بأمر الله قاضي قضاة الدولة الفاطمية لجدارته في قيادة هذا السلم التشريعي المهم في الدولة، حتى ضعفت الدولة الفاطمية ووصل الأمر إلى أن يقضى على وجودها من قبل صلاح الدين الأيوبي، والمفاجأة هي انضمام الفقيه والشاعر عمارة اليماني إلى معارضة هذا الانقلاب سنة 567هـ، وهو الذي كان شافعي المذهب، وانتهى الأمر بأن قتله صلاح الدين الأيوبي سنة 569هـ[1].

كذلك تستمد الخلافة الفاطمية هذه اللغة الشفافة من التسامح مع المعارف والمذاهب الأخرى من **رسائل إخوان الصفا** الذين قالوا: «ينبغي لإخواننا ـ أيدهم الله ـ أن لا يعادوا علمًا من العلوم أو يهجروا كتابًا من الكتب ولا يتعصبوا لمذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم»[2].

وكما ذكرنا أن المسؤولين عن الإسماعيلية حتى بعد انقسامها ظلوا يتكلمون بهذه النبرة الوطنية، ففي مذكرات الآغا خان الثالث محمد سلطان الحسيني الإمام النزاري يقول: «وكان أمري الأول لأتباعي المواطنين في بلدان متعددة أن الولاء المدينين به لشخصي ولبيتي هو ولاء روحي ليس زمنيًا، وأن ولاءهم الزمني مرتهن للدولة التي يعيشون فيها، وأن جزءًا لا يتجزأ من واجبهم هو أن يكونوا مواطنين صالحين وأن

---

(1) فرهاد دفتري، **الإسماعيلية في العصور الوسطى**.

(2) **إخوان الصفا وخلان الوفا**، الرسالة رقم تسعة وثلاثين، دار صادر.

عملي طوال كل هذا الوقت في السياسة أو الدبلوماسية كان قائمًا على هذا الأمر»[1]. وفي كتابه **مذكرات الآغا خان** يقول: «فالتعصب منافٍ لكامل طريقتنا ونظرتنا للحياة، وإذا لم يكن هناك في الحقيقة من أحكام مقطوعة مفصولة»، وأوعز حفيده الإمام كريم شاه الحسيني بضرورة التقيد بالتسامح والتعايش وقبول الآخر وفرض لغة الحوار، وكان هذا في فرمانه الذي وجّهه إلى أتباعه عام 1998م، وكان هذا الفرمان بمثابة مواكبة للمجتمعات المتحضرة وفرض الابتعاد عن أي نعرات أو حراكات تؤدي إلى الإقصاء أو الدموية لا سمح الله، وهنا شكلت المجتمعات الإسماعيلية نسيجًا متكاملًا قائمًا على التطور والمعرفة والتعايش.

والحال لا يختلف عن الطيبيين بانقساماتهم على الرغم من أنهم أكثر الأقسام تقوقعًا حول نفسها ولا يفضلون الاختلاط أو كشف معارفهم لتيارات الأخرى أو المجتمعات الأخرى، فالسليمانية[2] في نجران ظلت متعايشة مع اليهود والزيدية والشافعية أكثر من 350 سنة، كما أن الإسماعيلية التي كانت تشكل التعداد الأكبر في نجران كانت تفتتح مدارس العلم والكتاتيب في مركز دعوتها بالمنصورة[3]، إذ كانت هذه الكتاتيب فريدة من نوعها وتستقبل جميع المذاهب بدون تمييز، وكانت من أبرز الكتاتيب في جنوب الجزيرة العربية وظلت تجتذب من أراد تعلم القراءة والكتابة ودخلت نجران تحت الحكم السعودي، عندها افتتحت الدولة المدارس

(1) **مذكرات آغا خان**، دار المدى، ص 85.

(2) السليمانية نسبة لداعي المطلق سليمان بن الحسن الذي قاد الفرع المنقسم من الدعوة الطيبية الإسماعيلية مطلع القرن التاسع الهجري وعاد بها إلى اليمن.

(3) المنصورة هي مركز الدعوة الإسماعيلية السليمانية في نجران، وهي المقر الذي كانت تقام فيه المدارس التقليدية، والذي كان يفرز الدعاة والمتعلمين طوال وجود الإسماعيلية لأكثر من 7 قرون في نجران.

وكان للإسماعيليين النصيب الأكبر في التعلم بفضل عناية الدولة بالعلم والمتعلمين. لنعيد ما قلنا بأن الإسماعيلية استطاعت أن تحتفظ بالتوهج الذي حظيت به في الدولة الفاطمية وتعكسه في مجتمعاتها، سواء كانت بطابع مدني متحضر أو بطابع قبلي، أما الفرع الطيبي الداودي في الهند فهو الآخر واصل ركب التعايش مع الهندوس وبقية الطوائف المسلمة، على الرغم من أن بدايات القرن التاسع الهجري شهدت هناك مضايقات وصراعات هندوسية، ولكنها حلت فيما بعد، ومع مرور وتقدم الوقت استطاعت الطائفة الإسماعيلية في الهند أن تبني لها صروحًا علمية خاصة بها متمثلة في الجامعة السيفية بتأييد من الحكومة الهندية[1].

وللحديث بشكل علمي أكثر عن معاناة الإسماعيليين في العصر الحديث من معرفة الناس بهم بعد حملات كبيرة جدًا لتشويههم يقول فرهاد دفتري: «بقي الإسماعيليون حتى منتصف القرن العشرين يخضعون عمومًا للتشوية وسوء التعريف من خلال مجموعة متنوّعة من الخرافات والأساطير التي يجري تداولها حول تعاليمهم وممارساتهم. ويعود ذلك إلى حقيقة أن دراساتهم وتقويمهم كانت تجري بصورة حصرية في بلدان كل من العالمين الغربي والإسلامي على أساس الأدلة التي وضعت من قبل منتقصيهم، غير أن تصورات الغرباء للإسماعيليين خضعت للتصحيح الجذري بسبب نتائج البحث الحديث في ميادين الدراسات الإسماعيلية التي اعتمدت على عدد متزايد من مصادر ومخطوطات جرى إنتاجها خلال الأطوار المختلفة للتاريخ الإسماعيلي»[2].

وهنا يكمل دفتري «لقد أثر الأدب الإسماعيلي الثري والمتنوع الذي

(1) فرهاد دفتري، **الإسماعلية في العصر الحديث**، دار الساقي.

(2) المصدر نفسه، ص 15.

تمت استعادته ودراسته في الأزمنة الحديثة، لا سيما من أربعينيات القرن العشرين، في إغناء وتعزيز معرفتنا على نحو خاص بتاريخ الإسماعيليين وتقاليدهم في العصر الوسيط»[1].

وفي نهاية هذا الفصل يجب أن نقول إن الانقاسامات الإسماعيلية لا تعدو كونها حدثًا طبيعيًا، ولكنها لم تستطع تغيير جوهر وقالب المذهب المستنبط من العمق التراثي للمعارف والنصوص الإسماعيلية التي ألّفها أئمة ودعاة الدولة الفاطمية، وإن الأنظمة العلمانية والاشتراكية التي من شأنها أن ترتقي وتعزز بقاء هذه الجماعات لا تزال تطبق على الرغم من كل ما حصل لهم ومع اختلاف القوالب الاجتماعية المتغيرة حسب الجغرافيا.

(1) فرهاد دفتري، **الإسماعلية في العصر الحديث**، دار الساقي، ص 16.

المرأة في المجتمعات الإسماعيلية

«عندما تثقف رجلًا تكون قد ثقفت فردًا وحيدًا، وعندما تثقف المرأة فإنك تثقف مجتمعًا كاملًا».

الفيلسوف سقراط

تصاعدت وتيرة الحديث عن المرأة في العصر الحديث واختلاف الآراء الجدلية في تحجيمها أو مساواتها بالرجل، وصنف كثير من المؤلفات الفقهية التي تستدل بالنصوص التراثية التي ملأت المكتبات، ففي هذا الفصل سنوجز الحديث عن التعامل الإسماعيلي في حضورها وأبرز أعلامها.

المرأة في الحياة الدينية لدى الإسماعيلية، بالأخص في ذروة المعارف وتشييد الدولة الفاطمية، كانت تحظى بمكانتها المرموقة والخاصة بما يلائم ظروف المكان والعصر، فكانت تحضر المجالس المؤيدية والمستنصرية، وكذلك تحضر جميع المحاضرات التي تلقى، لا سيما في الجامع الأزهر في القاهرة المعزية الذي خُصص لهن فيه مجلس خاص، وكانت هذه المجالس يلتقي فيها الداعي بشكل عام جميع الناس بلا تمييز طبقي وكانت تقام فيها الدراسات والبحوث[1]، أما المجالس التي يشرف

(1) رسائل الآمر بأحكام الله، **الخطط للمقريزي**، ص 118.

عليها الخليفة فكانت تسمى مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة، كما كان لحرم قصر الخليفة مجالس تدعى «المحول» خاصة بالنساء وتعليمهن، وكانت مخصصة لهن في يوم من الأسبوع وتحولت إلى يومين في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

وكانت المجالس تدعو النساء إلى ضرورة العلم والتحلي بالأخلاق والفضيلة، وهذا ما كان واضحًا من رسائل الخليفة الحاكم بأمر الله التي كانت تلقى في المجالس، وكذلك من خلال المجالس المستنصرية في عهد الخليفة المستنصر بالله التي كانت تدعو لتكريم الأم والبر بالوالدين وإبراز دور الأم في المجتمع، وكذلك في المجالس المؤيدية التي كان يلقيها داعي دعاة الدولة الفاطمية المؤيد لدين الله الشيرازي وكانت تحث النساء على العفة والطهارة.

أما على الصعيد الدعوي والديني فذاع صيت أبرز الواعظات، وهي أم الخير الحجازية[1]، التي كانت تدين بالمذهب الشافعي والتي قدمت إلى القاهرة من الحجاز في الجزيرة العربية، وكانت تصنّف من أبرز علماء عصرها في الشريعة والفقه في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر، على غير ما كانت الدولة تتيحه للفقهاء من المذاهب الأخرى[2].

أما في ما يخص المرأة الذمية بصفتها الدينية فقد تميزت الدولة الفاطمية بصفة التسامح مع الأديان الأخرى من أهل الذمة، خصوصًا من النصارى، إذ كانوا يذهبون إلى معابدهم الخاصة ويمارسون عباداتهم، كما كانت الكنيسة بالنسبة إلى المسيحيين تصدر تعاليم لتنظيم المرأة

(1) عمرو مصطفى لطفي، **حكايات التعليم في مصر الإسلامية**.

(2) **الخطط للمقريزي**، ص 220.

وحثها على تقديم صورة طبية في الدولة، فقد كانت الكنائس متعاونة بشكل كبير مع الدولة الفاطمية، وتحديدًا في فترة المعز لدين الله.

أما المرأة اليهودية فقد كانت تتميّز في الدولة الفاطمية بالثراء غالبًا، وكانت ذات حرية مطلقة حسب أنظمة وحدود الدولة في البيع والشراء وتركتها الخاصة التي تورثها لمن تشاء، ومن ضمن مميزات المرأة اليهودية في العصور الفاطمية أنها كانت ذات عمل إنساني بدعمها الأعمال الخيرية[1]، ومن خلال ذلك نفهم أن المرأة الفاطمية كانت تحرص على أداء واجباتها الدينية، كما كانت تتمتع بحرياتها وحقوقها الخاصة.

أما في السياسة فلقد كان للمرأة في العصر الفاطمي دور كبير جدًا في الشؤون الداخلية أو الخارجية للدولة من قرار ومشورة، كان لها طابعها في الثبات والتحدي، ومن أهم الشخصيات ست الملك أخت الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله التي ولدت سنة 359هـ[2]، وكانت أكبر أبناء الخليفة العزيز بالله، إذ حظيت بمكانة خاصة لديه، فقد أجمع المؤرخون على أنها كانت صاحبة عقل وحزم، ولعل عدم زواجها أعطاها فرصة الحضور في شؤون الدولة لخدمة مصالح الخلفاء، فقد حرصت على تقديم المشورة والنصح لأخيها الحاكم بأمر الله الذي تولى الخلافة وهو في سن صغيرة، كما عملت على دور الوسيط في بعض قرارت الحاكم بأمر الله، وقيل إنه كان لها دورها الكبير جدًا في التخلص من الوزير الأول برجوان الذي سيطر على الخلافة الفاطمية في صغر الخليفة، وعلى الرغم من كل ما قامت به ست الملك إلا أن الشائعات من المؤرخين

(1) **الخطط للمقريزي**، ج 1، ص 354.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص174.

ظلت تطاردها حول مقتل أو اختفاء أخيها الخليفة الحاكم بأمر الله، وهذا ما دفع المؤرخ المقريزي للدفاع عنها وتبرئتها من التهم التي نسبت إليها من قبل المؤرخين المشارقة.

وبعد وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله استطاعت ست الملك الحفاظ على الملك والخلافة بداية بتكتمها على أمر الوفاة والاتزان في القرارت الداخلية والخارجية، ومن ثم انتقال السلطة سلميًا إلى ابن الخليفة أبي الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله، وذلك بإعلانها له أمام رجالات الدولة. أما بالنسبة للأوضاع الداخلية فقد جمعت ست الملك أهل مصر وخطبت فيهم ووعدت بمواصلة المسيرة، كما رفعت بعض الحظر الذي كان مفروضًا على النساء[1]، وخارجيًا كانت تقوم بمراسلة الولاة في أقطاع العالم الإسلامي لإخبارهم بتولي الخليفة الظاهر مقاليد الحكم في الدولة الفاطمية[2].

وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ظهر أحد أهم الأسماء النسوية في التاريخ الإسلامي وهي الملكة الحرة أروى الصليحي التي تولت مقاليد حكم الدولة الصليحية عام 492 هـ بعد وفاة زوجها المنصور، ولقد بيّن لنا التاريخ مدى مقدرة السيدة الحرة أروى في عملها على تحمل الظروف القاسية، وهذا ليس بغريب فهي تملك من رجاحة العقل والتفكير السليم ما ضاهت به الملوك وكبار رجال الدولة، فقد قامت بتحمل المسؤولية على أكمل وجه وضربت باسمها السكة وأقيمت لها الخطبة في صنعاء عام 532 هـ[3].

(1) **المرأة في مصر في العصر الفاطمي**، الدكتورة نرمين عبد الكريم أحمد، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص 76.

(3) المصدر نفسه، ص 81.

وكانت تحظى بثقة الإمام المستنصر وأطلق عليها الكثير من الألقاب، كما أن الخليفة الفاطمي ساعدها كثيرًا في تحقيق بعض الأهداف وعمق بعض الثورات في اليمن لتحافظ على استقرار الدولة إداريًا واجتماعيًا إلى أن توفيت سنة 523 هـ عن عمر يناهز 88 سنة، بعد أن نظمت الدعوة والمدرسة الإسماعيلية وأمرت بكل ما تملك من كتب وذخائر وقلاع إلى منصور بن المفضل بن الوليد[1].

وبعد الحرة أروى الصليحي شهد العهد الطيبي الذي انقسم منه السليماني والداودي خروج عدد من الأسماء النسوية التي كان لها دور كبير، ومنها السيدة زينب بنت يوسف أم الداعي سليمان بن الحسن الذي قاد انقسام الدعوة الطيبية إلى السليمانية، وهي أحد أهم مصادر التأثير على الداعي وكان لها أثرها بالغ الأهمية في تشكيل شخصية هذا الداعي الفذ الذي تجاوزت مؤلفاته 100 مؤلف.

وفي نفس تلك الحقبة ظهرت السيدة الفاضلة زهراء بنت يوسف بن سليمان التي سمى أحد الدعاة جعفر بن سليمان أحد مؤلفاته باسمها **الزهرة الزاهرة**، وعلاوة على علمها كانت تُعرف بأنها معلمة للطلبة وتلاميذ الشريعة في الدعوة.

وفي نهاية القرن العاشر الهجري ظهرت مجموعة من النساء كان يشار إليها في بعض كتاب الداودية في الهند باسم «المؤمنات»، وكانت تضم عددًا كبيرًا من أسماء أعلام الإسماعيلية من النساء منذ بداية الحركة الإسماعيلية في القرن الثالث الهجري، ولكن للأسف لم نستطع الحصول عليها.

أما في العصر الحديث فالمرأة عاشت بين تياري الدعوة القديمة

(1) **عيون الأخبار**، ج 7، ص 186 ـ 187.

المتمثلة في الإسماعيلية الطيبية والدعوة الجديدة المتمثلة في النزارية، ولكل منهما رأيه الخاص في تعامله مع المرأة، فالإسماعيلية الطيبية السليمانية عاشت تحت وطأة القوالب الاجتماعية القبلية التي تفرض تقويض دور المرأة في المجتمع واختصار دورها بالأم والمربية كعامل أساسي، وهنا يجب أن نقول إن التيار السليماني لم تظهر فيه أسماء لنسوة عالمات طوال الثلاثة قرون الماضية، وذلك التجذر ينبع كما قلنا بفعل السطوة الذكورية التي تدفعها القبلية الاجتماعية التي للأسف كان لها الدور في تغفيل شأن المرأة دينيًا في هذه المجتمعات الصعبة، ولعلنا نقول إنه، وفي أوقات مختلفة، كانت المرأة تشارك الرجل في مشاق الحياة وهمومها من فلاحة وزراعة وصناعة، ولكن مؤخرًا، وتحديدًا في نجران وبتحسن قليل في اليمن، عادت المرأة إلى المربع الأول الذي يعيب عليها الخروج لمشاركة الرجل، وهذا الفرض ليس إلا فرضًا قبليًا تزداد حدة الرأي فيه كما ضيقت النظرة القبلية على المرأة، وهنا لم يكتب في التاريخ أي أعلام بارزين من النساء في القسم الطيبي، ما عدا الملكة الحرة أروى الصليحي التي يندرج تحت اسمها كعلَم مشهور، بينما كانت القبلية والقراءة القاصرة للنصوص تغفل أي علَم غيرها كما أن بروز السيدة أروى في الحدث السياسي الإسلامي جعل اسمها يكثر في كتب التاريخ.

وهنا يرى بعض المؤرخين، ومنهم عارف تامر، أن حتى أروى الصليحي عاشت في زمن ومكان يحتقر فيهما دور المرأة للأسف.

ولكن كل شيء بدأ بالتغير بفعل النظرة الإنسانية التي تطورت في مقارنات الرجل بالمرأة، وهنا نكمل ما قلناه في العصر الحديث وتحديدًا في المملكة العربية السعودية التي فرضت ضرورة تعليم المرأة، فقد وجد الإسماعيليون أنفسهم في تدرج دائم لمواكبة التطور الزمني في العلم،

لدرجة أننا نشاهد المرأة تعلو في جميع المجالات مع مرور الوقت وتتصاعد أسماء عدة في تخصصات علمية وتربوية وحتى في مجال الأدب والفنون.

أما ما يعرف بالدعوة الجديدة المعروفة بالنزارية أو أتباع الإمام الحاضر الآغا خان، وهي التي تشكّل العدد الأكبر من إسماعيليي العالم، فركزت على أن تبقى المرأة في طوابع محسنة متلائمة مع المجتمعات المتحضرة، يمكن أن ترى فيها المرأة الإسماعيلية لا تختلف عن المرأة الغربية في القرار وحرية الفكر والمصير، كما أن لها حقوقها المتساوية مع ارتفاع إيمان العالم بجدية مساواة الرجل للمرأة، فلذلك شاهدنا المرأة الإسماعيلية تتقلد مناصب كبيرة في حكومات طاجاكستان وكندا، ولها أدوار مهمة في جميع المجالات الأدبية والعلمية والثقافية وحتى السياسية والاجتماعية.

ويأتي هذا التصاعد الكبير في النظر للمرأة بفضل أهمية الدور الذي يراه الأئمة النزارية الآغا خانات في هذا الزمن.

ولدى الجماعة الداودية في الهند واليمن فإن المرأة تبدو في المنتصف بين انفتاح الآغا خانية والسليمانية، وذلك بسبب طبيعة البيئة التي تعيش في هذه الدعوة، وهذا لا يغفل تطور الشأن الفكري للجماعة، ففي عام 2002 وصل عدد الطالبات في الجامعة السيفية في سورات الهندية إلى نصف عدد الطلاب بإجمالي 300 طالبة، كما أن هناك عددًا من المعلمات والأسماء النسوية التي وجدت في الجامعة.

وفي نهاية هذا الفصل نستنتج أن النظرة الإسماعيلية، وإن كانت تعاني في أوقات سابقة لظروف خاصة اجتماعية انغلاقية في شأن المرأة، إلا أنها الآن بدأت في مواكبة العالم في حقوقية المرأة بما يلائم المقتضيات الدينية.

سمات الفلسفة الإسماعيلية

«الإسماعيلية مرونة ومساحة فكرية مدهشة».

بول ووكر

العقلية المعرفية قبل الإسلام لم تكن لتتحمّل الفلسفة كعلم للأشياء ومبادئها وعللها الأولى، وإن كان معظم المؤرخين العرب يطلق على الفلسفة العلوم الدخيلة حتى ما بعد الإسلام بفترة بسيطة، وكان العرب يركزون على المعارف الفلكية والطبيعية والطبية والأساطير الشعبية والعلوم الزائفة حسب ما تعرفها فلسفة العلم، وشهدت الجاهلية تطورًا فـي بعض العلوم، بالأخص فـي أوقات مطالع النجوم ومغاربها ومعرفة سير الأمصار، ومن السيئ ذكره في تلك الحقبة أن التدوين كان معضلة كبيرة في حياة العرب قبل الإسلام، ومعضلة التدوين صنعت من بعض الأخبار والنوادر أساطير شعبية خرافية لا يمكن الاستدلال بها، وتتبع مجرياتها إلا القليل منها أو ما ثبت كالقصائد والمعلقات. يقول الجاحظ عن إغفال العرب التوثيق في معارفهم: «كان العرب في بداية أمرهم أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر»[1]. هذه الأقوال لا ريب في صحتها، وهي أن العرب لم يشتغلوا بعلوم الفلسفة على الرغم من ازدهارها في ذلك الوقت في الحضارات الفارسية والصينية والحميرية.

---

(1) **الجاحظ، البخلاء**، دار المعرفة.

أما بعد الإسلام، وظهور القومية الإنسانية على بعض من المجتمعات العربية، ومع ظهور الحركات التفكيرية التي تستخدم العقل والقياس في المجالات الدينية لتفسير كثير من الظواهر الشرعية، وفي القرآن الكريم والأحاديث كثير من الاستدلالات العقلية والقياسية التي كان يرى منها المسلمون بوابة لخلق نمط تأويلي لكثير من الأمور، بالأخص ما يتعلق بالباطن الذي هو الحقائق الروحانية التي تنجلي لأهل البرهان، ومن خصهم الله بالمعرفة وظاهر الأمثال المضروبة لتلك المعاني، وهو ما يمثل لدى كثير من المذاهب كالمعتزلة والإسماعيلية ونسبة الشريعة إلى الحكمة، والوجودية للرمزية التي يصعب على العقل التمييز بينها إلا بالفلسفة، وهنا وجدت التيارات الإسلامية ضالتها في الفلسفة التي تعني باليونانية (محبة الحكمة)[1].

وعلى سبيل المثال فإن المفكرين الإسماعيليين الفاطميين انخرطوا في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلادي في عملية تركيب الفلسفة للدمج بين عناصر الأفلاطونية المحدثة[2] والعرفانية من أجل التوسع في الأفكار الإسلامية وبشكل خاص الإسماعيلية وأحكامها[3].

وجاءت الإسماعيلية نتيجة قرون طويلة من التثقيف من بيئات متنوعة لتعرض قدرًا مهمًا من التنوّع في معتقداتها وممارساتها[4].

(1) الفلسفة؛ في اللغة تعني الحكمة، ويقصد بها جميع الأفكار التي يستنبطها العقل ويدفعها إلى التفكير، أما اصطلاحًا فهي تعرف بأنها العلم والمعرفة والتأمل والتفكير التي تقوم على بحث الحقائق وتحليلها.

(2) الأفلاطونية المحدثة هي التسمية التي أطلقت منذ القرن التاسع عشر على مدرسة الصوفية الفلسفية، التي تكونت في القرن الثالث من تعاليم أفلاطون، وترتكز الأفلاطونية المحدثة على الجوانب الروحية والكونية في فكر الفيلسوف أفلاطون.

(3) هنري كوربان، **الزمن الدوري والعرفان الإسماعيلي**.

(4) فرهاد دفتري، **تاريخ الإسماعيليين الحديث**، ص 134.

وتتفق أغلبية العاكفين على دراسة الفلسفة العربية والإسلامية، سواء كانوا عربًا أو مستشرقين، على أن الإسماعيلية كوّنت فلسفة قديمة ومحدثة تشكلت على مراحل عدة، بداية بعهد الاستتار الأول وظهور عدة دعاة أشرقت معارفهم إلى يومنا، وأبرزهم إخوان الصفا والداعي عبدان والفارابي، والمرحلة الثانية كانت قبل الخلافة الفاطمية مع الداعي جعفر بن منصور اليمن ومع الخليفة المعز لدين الله والقاضي النعمان، والمرحلة الثالثة الأكثر تعمقًا للفلسفة هي ما كتب عنه الكرماني وأبو يعقوب السجستاني وغيرهم، والمرحلة الأخيرة والأكثر تشعبًا هي النزارية والطيبية، وما أطلق عليها المورخون «العهد القديم» وهي الطيبية، والعهد الجديد وهي النزارية، وتنصّ اتفاقية المستشرقين، بالأخص الروسي إيفانوف والألماني هاينز هايم، على أن **رسائل إخوان الصفا** هي بوتقة المعرفة الإسماعيلية وإشراقتها، مع استغراب الأخير- هايم - أن مؤلفات أحمد حميد الدين الكرماني خلت كليًا من ذكر إخوان الصفا، وأن هناك اختلافًا في بعض الاصطلاحات في محتوى المادتين المعرفيتين، بينما يرى محمد عابد الجابري[1] أن العرفان الشيعي عمومًا والعرفان الإسماعيلي خصوصًا هو هرميسية الفلسفة[2]، مستدلًا بمحتوى رسائل إخوان الصفا، ويرى اللبناني حسين مروة أن الشكل الفلسفي للإسماعيلية يأخذ كقالب صوفي، إذ إن المرحلة الأولى من الفلسفة العربية، التي كانت الفلسفة الإسماعيلية في القرنين الثالث والرابع، يقودها نوع من تنظيم صورة علاقة الله بالإنسان على أساس الكشف بدون الوساطة، إذ أخذت تعقد صلات متلاحمة من المناحي وسلسة من

(1) محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي**، ص 279.

(2) الهرمسية نسبة إلى هرمس أو نبي الله إدريس، وهي فلسفة لاهوتية قديمة.

المراتب التصاعدية إلى المعرفة الحقيقة بمفهومها الصوفي وهذا شكل من أشكال فهم الفلسفة الإسماعيلية بشكل عام[1].

ويـرى أستاذ التاريخ في جامعة ويلستون برنارد لويس[2] أن الإسماعيليين استطاعوا أن ينتزعوا آراء أهل التقوى والورع في احترامهم للقرآن والسنة والشرعية احترامًا لا يقل عن أهل السنة، وبالنسبة لأهل الذكاء والفطنة فقد قدموا تفسيرًا فلسفيًا للكون استمدوه من مصادر القدماء، خاصة الفكر الأفلاطوني الجديد، وبالنسبة للأرواح الشفافة قدموا عقيدة عاطفية ذاتية دافئة تغذيها العبرة المستمدة من آلام الأئمة وتضحيات أتباعهم في معاناة العذار وإحراز الحق.

واستطاعت الإسماعيلية إغراء الفلاسفة واللاهوتيين والشعراء والدارسين وإيجاد بيئة مناسبة لهم، في ظل اختفاء الأعمال الإسماعيلية وانتشار بعض الأعلام الإسماعيليين، منهم الموسوعة المعرفية الشهيرة التي انتشرت من فارس إلى الأندلس، وقد أخذت هذه الموسوعة مسحة إسماعيلية واضحة[3].

تمت إبراهيم المكرمي

2017/9/14

(1) اللبناني حسين مروة، **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**.

(2) برنارد لويس، **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**.

(3) المصدر نفسه، ص 54.